رسالة الحقوق ـ الواقع العربي والمثال

كمال السيّد*

ظهرت هذه الرسالة في ظروف عاصفة جداً ولم يكتب لها الإعلان من منبر حكومي أو رسمي، فظلّت إرثاً تتناقله الأجيال... أجيال المقهورين في الأرض العربية إلى يومنا هذا.

ولادة معافاة مبرّأة من كلّ ما يشوب الكلمة من أهواء ونرجسية. إنها بحقّ أصداء لضمير الإنسان، ذلك القانون الأخلاقي المودَع في تكوين البشر.

مشاهد من السيرة الذاتية لصاحب الرسالة

المشهد الأول

كما تشير البوصلة إلى قطب الشمال. كان هناك شيء ما يتّجه من بعيد يشير إلى بقعة على شطآن الفرات... إلى منائر تنبعث من أعماق المياه... شيء يشبه الروح تفصح عنه الحوادث كما تفصح الأرض عن سرّ البذار.

مضى التاريخ يشعل الحوادث هنا وهناك. الخيول تهزّ الأرض وتثير الغبار.. تغير على المدن في العراقين وفي الحجاز.

فقد الإنسان العربي طمأنينته.. ورحل زمن السلام، وهاجرت الروح بعيداً.

وعندما تغيب الروح، تنطفئ الجذوة المشتعلة التي تضيء للإنسان طريقه في الحياة.

* كاتب من العراق.

بدت الكعبة ذلك العام كسفينة وسط أمواج بشرية متدافعة.

تمتم «زين العابدين» بحزن:

- ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج...

وقف سعيد بن المسيّب وسط حشود القرّاء ينتظرون رجلاً يدعوه الناس بألقاب؛ فإذا قيل «ذو الثفنات» أو «سيّد العابدين» أو «زين العابدين» أو «السجاد» أو «الزكي» أو «الأمين» فإن الأذهان تنصرف إلى شابّ في الثلاثين من عمره... عليه سيماء النبوّات وقد رسم الحزن لوحة في عينيه تموج فيها غيوم مخزونة بالمطر.

- هاهو قادم.

هتف أحد القرّاء وقد أشار إلى جهة تفضي منها قوافل الحجيج.

ورنت الأبصار إلى نبع الطمأنينة في دنياً كلّ ما فيها يدور بعنف.

تهفو له القلوب الحائرة وهي تبحث عن طريق في السماء بعدما تشابهت عليهم السبل.

انطلق الركب باتجاه الشمال إلى حيث هاجر محمد من قبل؛ سفن الصحراء تطوي المسافات الزاخرة بالرمال. مالت الشمس نحو المغيب، وألقت السفن مراسيها، ليلتقط المسافرون أنفاسهم.

ثمّة شجيرات تحيط بغدير ماء؛ ومضارب لخيام بعيدة، ونسوة يحملن جرار الماء ويتجهن صوب الخيام. غابت الشمس وراء كثبان الرمال؛ وبدت ذرى التلال متّقدة بضوء يفور حمرة.

شمّر «زين العابدين» عن مرفقيه وراحت مياه الوضوء تنثال على وجه مضيء فتتساقط حبّاتها محدثة نغماً هادئاً. اتّجه حفيد النبي بكليته إلى البيت المعمور وكبّر للصلاة. بدا كتمثال منحوت بخشوع ما خلا نسمات كانت تحرّك ثيابه البيضاء برفق. خيّم صمت مهيب، لكأن روح الإنسان وهي تتّصل بسبب إلى السماء، تهيمن على كلّ ما حولها ومن حولها من شجر وحجر وآدميين.

هوى الكائن الأبيض ساجداً للحقيقة الوحيدة؛ كحمامة تبشّر بالسلام. انبعثت كلمات أخّاذة لكأنّها نهر يتدفّق من جنّات الفردوس، تنساب هادئة معبّرة تمسح على القلوب فتهبها السكينة وعلى الرمال فتغمرها خشوعاً وجلالاً.

النبع المتدفق يسحر الكائنات بتسبيح الإنسان:

«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَحَنَانَيْكَ
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَعَالَيْتَ
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَالْعِزُّ إِزَارُكَ
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَالْعَظَمَةُ رِدَاؤُكَ
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَالْكِبْرِيَاءُ سُلْطَانُكَ
سُبْحَانَكَ مِنْ عَظِيمٍ مَا أَعْظَمَكَ
سُبْحَانَكَ سُبِّحْتَ فِي الْأَعْلَى سُبْحَانَكَ تَسْمَعُ وَتَرَى مَا تَحْتَ الثَّرَى
سُبْحَانَكَ أَنْتَ شَاهِدُ كُلِّ نَجْوَى
سُبْحَانَكَ مَوْضِعُ كُلِّ شَكْوَى
سُبْحَانَكَ حَاضِرُ كُلِّ مَلأ
سُبْحَانَكَ عَظِيمُ الرَّجَاءِ
سُبْحَانَكَ تَرَى مَا فِي قَعْرِ الماءِ
سُبْحَانَكَ تَسْمَعُ أَنْفَاسَ الْحِيتَانِ فِي قُعُورِ الْبِحَارِ
سُبْحَانَكَ تَعْلَمُ وَزْنَ السَّمَاوَاتِ
سُبْحَانَكَ تَعْلَمُ وَزْنَ الأَرَضِينَ
سُبْحَانَكَ تَعْلَمُ وَزْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
سُبْحَانَكَ تَعْلَمُ وَزْنَ الظُّلْمَةِ وَالنُّورِ
سُبْحَانَكَ تَعْلَمُ وَزْنَ الْفَيْءِ وَالْهَوَاءِ
سُبْحَانَكَ تَعْلَمُ وَزْنَ الرِّيحِ كَمْ هِيَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ
سُبْحَانَكَ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ
سُبْحَانَكَ عَجَباً لِمَنْ عَرَفَكَ كَيْفَ لا يَخَافُكَ
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ
سُبْحَانَ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ».

أمر عجيب! ماذا حدث؟ **ما هذا الدويّ الذي تردّده الكائنات لكأنَّ صوت الإنسان قد فجّر في مكنوناتها الأسرار؛ كما تنفجر من الصخر ينابيع الحياة في لحظة تماس مع الغيب.**

الأشواك وذرّات الرمال والشجيرات المتناثرة هنا وهناك، تردّد بصوت يشبه دويّ النحل في نخاريبها: سبحان الله.. سبحان الله.

مرّت لحظات مشحونة سمع فيها أبناء آدم وقد عادوا من الحج الأكبر تسبيح الكائنات.

فغرت الأفواه دهشة وانعقدت الألسن في اللحظة التي يلج فيها ابن آدم عالَم الملكوت.

رفع الذي عنده علمُ الكتاب رأسه من الأرض والتفت إلى ابن المسيّب:

ـ أفزعت يا سعيد؟

أجاب سعيد وقد ثاب إلى رشده:

ـ نعم يا ابن رسول الله...

ـ هذا التسبيح الأعظم...

سكت هنيهة ثمَّ أردف:

ـ حدّثني أبي عن جدّي عن رسول الله لا تبقى الذنوب مع هذا التسبيح، وأن الله جلّ جلاله لمّا خلق جبريل ألهمه هذا التسبيح وهو اسم الله الأكبر[1].

عادت الأشياء إلى طبيعتها وآب الإنسان إلى عالمه، حيث الأشجار صامتة وذرّات الرمال غافية منذ آلاف السنين؛ وبقي الإنسان يتذكّر لحظة قدسية، وَلَجَ فيها الملكوت ثمَّ عاد إلى طبيعته مرّة أخرى.

المشهد الثاني

ـ ألا تذهب إلى المسجد يا أبي؟!

قالت الصبيَّة لأبيها الشيخ..

تمتم ومياه الوضوء تتقاطر من وجهه:

ـ والله يا بنيتي إني لأخجل من نفسي..

ـ ولِمَ؟

ـ لقد رأيت في ظهيرة اليوم مالم أره ولن أراه.

ـ وما رأيت يا أبه؟

ـ رأيت الحسن بن الحسن.

ـ السجين الذي انهالوا عليه بالسياط في مسجد النبي قبل شهرين؟

ـ أجل.. رأيته اليوم يقف على رأس ابن عمّه علي بن الحسين.. فشتمه وأسمعه سيء الكلام... والله لَوَدِدْتُ أن أصفعه.

- وماذا حصل؟

- لا شيء، أطرق «السجاد» ولم ينبس ببنت شفة إجلالاً لمسجد جدّه.

سكت الشيخ هنيهة واستأنف حديثه:

- فلمّا غادر الحسن المسجد، رفع علي رأسه ونظر إلينا. كنّا جميعاً ساكتين.. وعرف ما في قلوبنا من رغبة في أن نردَّ له الصاع صاعين...

وفرحنا عندما قال لنا: قد سمعتم ما قال الرجل وأنا أحبّ أن تنهضوا معي حتى تسمعوا ردّي عليه.

فنهضنا معه وانطلقنا نحثّ الخطى إلى منزل الحسن وهتف «السجّاد» بابن عمّه فخرجت جارية تسأل عن الطارق فقال: قولي له علي بن الحسين. فخرج إلينا متوثباً، عيناه تقدحان شرّاً مستطيراً.

- وماذا حصل يا أبي؟

- أمرٌ عجيب يا بنيتي. لقد ورثوا مكارم الخُلق عن جدّهم.. لم يزد على أن قال له: يا أخي إنّك قد وقفت علي آنفاً وقلت وقلت.. فإنْ كان الذي قلته حقاً، فأنا استغفر الله منه، وإنْ كان باطلاً ما قلت، فغفر الله لك..

- يا لهذا الحلم! فماذا قال الحسن؟

- يا بنيتي رأيته يرتجف وقد سقطت العصا من يده وتصبّب جبينه عرقاً.. لكأن الأرض تهتزّ تحت قدميه.. ورأيته يبكي مثلما يبكي الأطفال.. ثمَّ ألقى بنفسه على ابن عمّه وقال: أجل والله قلت فيك ما ليس فيك وأنا أحقّ به.

قال السجّاد وهو يقبّله:

- أعرف إنّما دفعك إلى ذلك الحاجة.

وأخرج من جيبه صرّة فيها ألف دينار وناوله إيّاها. وسمعته لما عدنا إلى المسجد يقول: ما تجرّعتُ جرعةً أحبّ إليّ من جرعة غيظ لا أكافئ بها صاحبها.

ظلّت الصبيَّة مأخوذة بما تسمع. وتمتمت:

- هذه والله مواعظ الأنبياء!

راحت الفتاة تراقب والدها وهو يلج عالَم الصلاة، ويرفع كفين معروقتين إلى خالق السماوات والأرضين؛ الله ربّ العالمين.

ارتفعت طرقات على الباب.. وخفّت الفتاة لتعرف الزائر..

كانت النجوم قد اجتمعت في السماء؛ هتف الطارق:

ـ أنا علي بن الحسين.

صاح الشيخ في حجرته.

ـ واسوأتاه ظنّني مريضاً فجاء يعودني.

وانطلق الشيخ لاستقبال رجلٍ، ما على وجه الأرض شبيه له. ملأت رائحة الطيب فضاء البيت، لكأن الربيع قد حلّ ضيفاً عندهم.

همس السجّاد وقد أضاءت ابتسامة وجهه الحزين:

ـ أقلقني غيابك أبا خالد.

لم يجد الشيخ ما يقوله، فنهض يقبّل جبين ضيفه العظيم.

ملأ رأسه من عبير النبوات. وهتف مأخوذاً.

ـ الله أعلم حيث يجعل رسالته.

المشهد الثالث

قوافل الحجيج تنساب في بطون الأودية، لكأنها تصغي إلى نداء إبراهيم؛ الكتل البشرية تنطلق صوب أول بيت وضع للنّاس، وموسم هذا العام موسم زحام، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ونسي الناس أو كادوا، ذكريات حزينة، أو دفنوها في أعماق القلوب.

وتعلو في الآفاق نداءات الحرية للإنسان عندما يُعبد الله وحده وتهتف الحناجر الآدمية: **لبّيك اللهم لبّيك.. لبّيك لا شريك لك لبّيك.. إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك...**

وتطفو الكعبة في بحر الأمواج البشرية وهي ترفل بثياب الحج البيضاء كحمائم السلام. وهنا يدرك الإنسان أن لا إله إلا الله.. لا ربّ سواه وأنّ الناس سواسية، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى... فيصغي المرء إلى كلمات الله وهي تتدفق في قلب الإنسان: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[٢] فتتهاوى الحواجز وتتلاشى الامتيازات وتتمزّق الحجُب، وإذا المسلم أخو المسلم حقّاً، وإذا القلوب تتطهّر من أدران الشرك.

كان **هشام بن عبد الملك** يطوف حول الكعبة، لا يكترث له أحد ولا يهابه إنسان، حوله رجاله من أهل الشام..

بذل هشام كلّ ما بوسعه لاستلام الحجر الأسود، ولكن الأمواج البشرية كانت تصدّه في كلّ مرّة فيرجع خائباً.

بان الحنق في عينه الحولاء.

ألقى بنفسه على كرسي في ناحية من الحرم وجلس ينظر، وينتظر انحسار الأمواج البشرية؛ شعر بأنّه ليس شيئاً في هذا المكان، وبدا له الحجر الأسود بعيداً.. بعيداً جدّاً.

وأقبل رجل قد اجتاز الخمسين من السنين، وكان وجهه يضيء كقمر بين الغيوم... وحدث أمر عجيب. تناثرت أسئلة وارتسمت علامات استفهام. تساءل شامي وهو يتطلّع إلى رجل يرفل بحلّته البيضاء الناصعة نصاعة الثلوج في جبال الشام.

ـ من هذا الرجل الذي ينفرج له الناس كملك عظيم؟!

وهتف بأصحابه:

ـ أنظروا.. أنظروا.. إنّه يشقّ طريقه بيسر إلى الحجر الأسود.

قبّل الرجل ذو الوجه المضيء الحجر الأسود واستأنفت الأمواج البشرية تدافعها من جديد.

التفت الشامي إلى خليفة المستقبل:

ـ من هذا؟!

ردّ الأحول بغيظ:

ـ لا أدري.

وحده القدر يفسّر مرور الشعراء في لحظات يتوقّف عندها التاريخ بإجلال.

هتف الفرزدق:

ـ ولكنّي أدري من هو.

تساءل الشامي بشوق:

ـ ومن هو يا أبا فراس؟

فأنشد:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلّهم ... هذا التقى النقي الطاهر العلَمِ
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجدّه أنبياء الله قد خُتموا
إذا رأته قريشٌ قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... رُكن الحطيم إذا ما جاء يستلم
وليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرتَ والعجم

استشاط هشام حقداً.. وبدت عينه الحولاء تتراقص في حجرها. وتخطفت الجلاوزة شاعراً نطق روح القدس على لسانه.. وسيق الشاعر مخفوراً إلى السجن فهذا زمن مصنوع من خشب ونحاس.. زمن لا يعرف للكلمة حرمتها.. زمن غابت فيه الآيات وراء القضبان.

المشهد الرابع

كانت الرياح شتائية باردة والليل يغمر بظلمته المدينة. الأزقة مقفرة، وقد أوى الناس إلى النوم. ما خلا بيوت متواضعة؛ كان الضوء يرسل أشعته الواهنة من كوى صغيرة فيها؛ وخلف أبوابها كانت آذان تترقب قدوم «صاحب الجراب».

تساءل ابن شهاب وهو يرى رجلاً يمرق في الظلام، كان الرجل ملثماً ولكنّه عرفه؛ ولكن ما دعاه إلى الخروج في مثل هذه الساعة من الليل؟! كان ابن شهاب عائداً من قصر الوالي. هتف الزهري:

- يا ابن رسول الله! ما هذا؟!

عدّل «حامل الجراب» جرابه وأجاب:

- أريد سفراً وهذا زادي.

تعجّب ابن شهاب.

- دع غلامي يحمله عنك إذن.

رفض السجّاد وحاول الزهري أن يأخذ الكيس عنه.

- دعني أحمله أنا.. إنه زادي وأنا أحقّ بحمله.. أسألك بحقّ الله أن تتركني وتمضي.

وغاب «صاحب الجراب» في زقاق مليء بالليل والبرد.

عدّل من لثامه وطرق باباً صغيرةً ووضع شيئاً ثمَّ مضى...

وتوقّف أمام بيت يكاد جداره أن ينهار. نقر على الباب وترك شيئاً على عتبته، ثمَّ استأنف طريقه في الأزقة والبرد والظلام.

ومرّت ساعات عاد بعدها «صاحب الجراب» بلا جراب، كانت النجوم تشتد بريقاً في السماء وقد انفتحت نوافذ الملكوت.

ولج السجّاد محرابه.. وتدفق نبع من الصلاة فقد آن لقاء الحبيب مع محبوبه.. وانساب نهر من كلمات الإنسان وهو يشدو بحبّ بارئ الخليقة:

- إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبّتك فرام منك بدلاً

ومن ذا الذي أَنِس بقربك فابتغى عنك حولا

إلهي فاجعلنا ممّن اصطفيتهُ لقربك وولايتك

وأخلصته لودّك ومحبّتكَ

وشوَّقته إلى لقائك

ورضَّيته بقضائك

ومنحته بالنَّظر إلى وجهك

وحبوته برضاك

وأعذته من هجرك وقلاك

وبوَّأته مقعد الصّدق في جوارك

وخصصته بمعرفتك

وأهَّلته لعبادتك

و هيَّمته لإرادتك

و اجتبيته لمشاهدتك

و أخليت وجهه لك

و فرَّغت فؤاده لحبك

و رغَّبته فيما عندك

و ألهمته ذكرك

و أوزعته شكرك

و شغلته بطاعتك

و صيّرته من صالحي بريّتك

و اخترته لمناجاتك

و قطعت عنه كل شيء يقطعه عنك

اللهم! اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين

و دهرهم الزفرة والأنين

جباههم ساجدة لعظمتك

و عيونهم ساهرة في خدمتك

و دموعهم سائلة من خشيتك

و قلوبهم متعلقة بمحبتك

و أفئدتهم منخلعة من مهابتك.

السماء تكتظ بالنجوم وقد تكاثفت ظلمة الليل، فانطلقت استغاثة قلب الإنسان عندما تنفتح أبواب الملكوت:

يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة!

و سبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة!

يا مُنى قلوب المشتاقين!

و يا غاية آمال المحبين!

أسألك حبّك وحبّ من يحبك!

و حب كل عمل يوصلني إلى قربك

و أن تجعلك أحبّ إلي مما سواك

و أن تجعل حبي إياك قائداً إلى رضوانك

و شوقي إليك ذائداً عن عصيانك

و امنن بالنظر إليك عليّ

و انظر بعين الود والعطف إليّ

و لا تصرف عني وجهك

و اجعلني من أهل الإسعاد والحظوة عندك

يا مجيب. يا أرحم الراحمين.

العينان تسحّان الدموع.. دموع الإنسان المفتون بالحبّ الإلهي.. كسماء تمطر على

هون.. تغسل الأشجار والأرض فتهتز وتربو.. والدموع تغسل قلب الإنسان فيشرق بنور ربّه وينبض بالحبّ والأمل والسلام.

المشهد الأخير

- ماذا أرى؟

هتف الزهري وقد وقعت عيناه على «السجّاد» بين المحراب والمنبر وأردف وهو يحثّ الخطى إليه:

- ألم يخبرني بأنّه على سفر؟!

أومأ مسلِّماً وهتف:

- يابن رسول الله لست أرى لذلك السفر أثراً؟!

تمتم السجّاد بخشوع من أوشك على الرحيل عن الدنيا:

- بلى يا زهري... ولكن ليس كما ظننت، إنما هو سفر الآخرة.

- والمتاع الذي كنتَ تحمل لم يكن غير صدقات للفقراء؟

وتمتم متأثراً وهو يبتعد:

- نِعمَ السفر سفرة الآخرة وخير الزاد التقوى.

انتحى الزهري زاوية من المسجد وكان ما يزال متأثراً، قال صاحب له:

- إنك لا تفتأ تذكر علي بن الحسين بخير.

التفت الزهري وقد شمّ رائحة تملّق.

- ويحك يا هذا والله لم أرَ ولن أرى مثل علي بن الحسين ما حييت... لقد رأيته مقيداً بالحديد وقد أحدق الحرّاس به يريدون إرساله إلى دمشق بأمر عبد الملك؛ فاستأذنتهم في وداعه فلم أملك نفسي عن البكاء فبكيت وقلت له: وَدِدْتُ إني مكانك وأنت سالم فرفع بصره إليّ وقال:

- يا زهري أتظنّ أنَّ ما ترى عليّ وفي عنقي يُكْرِثُني، أما لو شئت لما كان، وأنّه ليذكرني عذاب الله..

التفت الزهري إلى صاحبه وقال:

- أتصدّقني لو قلت لك لقد رأيته يخرج يديه وقدميه من القيود لكأنها خيوط عنكبوت!!

فما مضت أربع ليال حتى عاد الجنود يبحثون عنه في المدينة فسألت أحدهم عمّا حصل فقال: فقدناه ولم نعثر له على أثر ووجدنا القيود والأغلال في مكانه.

هتف الرجل:

ـ أمرٌ عجيب.

ـ وأعجب منه هو إني لما قدمت بعد ذلك على عبد الملك وأخبرته بما رأيت قال: لقد جاءني يوم فقده الحراس فدخل علي وقال: ما أنا وأنت؟

فقلت له: أقم عندي في الرحب والسعة.

فقال: لا أحب، ثمَّ خرج، فوالله لقد امتلأ قلبي منه رعباً.

وحدّثني طاووس مرّة قال: رأيت رجلاً يصلّي في المسجد الحرام تحت الميزاب يدعو ويبكي في دعائه، فجئته حين فرغ من الصلاة فإذا هو علي بن الحسين (عليه السلام)، فقلت له: يا ابن رسول الله رأيتك على حالة كذا ولك ثلاثة أرجو أن تؤمنك من الخوف أحدها: أنك ابن رسول الله، والثاني: شفاعة جدّك، والثالث: رحمة الله؟ فقال: يا طاووس أمّا إني ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله) فلا يؤمنني وقد سمعت الله تعالى يقول: ﴿فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ﴾[٣] وأمّا شفاعة جدّي فلا تؤمنني؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾[٤] وأمّا رحمة الله فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٥] ولا أعلم أني محسن.

وأردف الزهري وهو ينهض للصلاة:

ـ ولقد مضت عليه عشرون سنة وهو يبكي أباه ويقول:

إنّما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون. والله ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين.

وتمر الساعات بطيئة، في ليلة تسمّرت النجوم في سمائها.

ولم تغمض عيون المدينة... الرياح الباردة تجوس الأزقّة.. تعوي وهي تطرق الأبواب.. والنوافذ.

حتى إذا طلع الفجر.. سكن كلّ شيء، وقد انطفأت النجوم وانبعثت صرخة في قلب الغبش الرمادي.

لقد رحل علي بن الحسين؛ وعندها عرف الناس هوية الرجل الذي كان يجوس أزقة المدينة في الليل ويهب الفقراء الفرحة والدفء والأمل.

ولمّا انثالت عليه المياه.. رأى الناس على ظهره مثل ركب الإبل.

سأل رجل مدهوشاً:

- ما هذا؟

أجاب حفيد له:

- لقد كان يحمل على ظهره جراباً كلّ ليلة فيطوف منازل الفقراء.

بكى الرجل بمرارة. لقد رحل السلام فالمدينة يلفّها برد وظلام.. وعامنا عام حزن.

كانت المدينة تبكي.. تبكي رحيل الأشياء الملوّنة. لم يبق منها سوى طيوف تحلّق في سماء الذكريات. وفي دمشق تقام الأفراح.. والوليد الملك العربي يتلقى أنباءً بهيجة.. فمملكته تتوسع شرقاً وغرباً وكنوز المدن المقهورة تتدفق صوب دمشق؛ غير مكترث لما حل بأنطاكيا وقد دمّرتها الزلازل.

ولكن هل يتوقّف التاريخ عند هذه النهاية؟!

- ﴿ **كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا. وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا. وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى. يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي. فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ. وَلا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ. يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾[٦].

لم يكن هذا الاسترسال في إضاءة تلك المشاهد المتألقة الخالدة، إلا لنؤكّد نقطة جوهرية، وهي أن النبع الوحيد لحقوق الإنسان إنما هو نبع أخلاقي كما أن الضمانات الإجرائية إنما هي أخلاقية أيضاً بالدرجة الأولى، ثمَّ تأتي الخطوة الأولى في تحول المنظومة الأخلاقية إلى نظام حقوقي، ومجموعة من القوانين اللازمة التنفيذ. وهذا ما استطاع الغرب تحقيق مساحات منه تدعو إلى الإعجاب؛ لأن الأزمة التي تعصف بالوطن العربي الممتد من المحيط إلى الخليج ليست فكرية وإنما هي في الصميم أزمة أخلاقية، تجعل كلّ ما ينتج في هذا المضمار مجرّد هراء أو حبراً على ورق.

وهذا في تصوري ما ندّد به القرآن الكريم في قوله تبارك وتعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ**﴾[٧] وتكمن المحنة في أنّه

حتى الرسالات الإلهية التي هي بلاغات مبرأة من الأهواء البشرية سرعان ما تقع في أيدي البشر؛ فتنتقل بعد وهلة من الإنسان الإلهي إلى الإنسان الإله أو الذي يتحدّث باسم الإله.

من أجل هذا يقول القرآن الكريم: ﴿ **قُلْ لَوْ كانَ فِي الارْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً** ﴾[٨].

إن قوى الشر التي تتمظهر في أشكال مختلفة، تنزع باستمرار إلى خنق الأصوات، التي تنادي بحقوق الإنسان وكرامته. وما ظاهرة قتل الأنبياء والفلاسفة والمصلحين إلا تعبير عن هذا النزوع المستمر للشر.

إن إرادة الشر لا تتحمّل وجود أي شيء يذكّر بالقانون الأخلاقي أو يدعو إليه؛ ولهذا امتدت خناجر الشر إلى ناقة بريئة خرجت من قلب الصخور.. قُتِلت مع فصيلها الصغير وكانت هذه الجريمة تعبيراً عن إرادة شريرة لا ترى مكاناً للبراءة والحق.

وما يلفت النظر هو أن صاحب الرسالة يصنّف مجتمعه إلى ستة أصناف وهو تصنيف ينسحب على عصرنا تماماً يقول (عليه السلام):

«**الناس في زماننا على ست طبقات: أُسدٌ ونئاب وثعالب وكلاب وخنازير وشياه، فأمّا الأسد فملوك الدنيا يحب كل واحد منهم أن يَغلب ولا يُغلب. وأما الذئاب فتجاركم يَذُمّون إذا اشتَروا ويَمْدَحُون إذا باعوا. وأما الثعالب فهؤلاء الذين يأكلون بأديانهم ولا يكون في قلوبهم ما يصفون بألسنتهم. وأما الكلاب فيَهِرُّون على الناس بألسنتهم ويُكَرِّمها الناس من شرّ ألسنتها. وأمّا الخنازير فهؤلاء المخنثون وأشباههم لا يُدعون إلى فاحشة إلا أجابوا. وأمّا الشياه فالمؤمنون الذين تجز شعورهم ويُؤكل لحومهم ويُكسر عظامهم**».

ثمَّ يتساءل بمرارة: «**فكيف تصنع الشاة بين أسدٍ ونئبٍ وثعلبٍ وكلبٍ وخنْزير**»[٩]؟!

وَمِنْ قَبْلُ تساءل الإمام علي قائلاً: «**إذا كان الراعي ذئباً فالشاة من يحفظها**»[١٠]؟!

وإنّك لتجد في التاريخ العربي كما هو الحال في تاريخ الأمم الأخرى أن النماذج الخمسة كلّها وبلا استثناء تربعت على سدّة الحكم، فالأسود في تاريخنا القديم والحديث ضمت إلى خصالها خصال النماذج الأخرى. إنك لتجدهم ذئاباً وكلاباً وخنازير أيضاً، فذلك الذئب الذي تجده يتحدّث عن اقتصاديات القطاع العام واقتصاد الدولة إنما يتحدّث عن اقتصاده هو وأسرته، ولا يستطيع أحد أن يتأوه من سياطه؛ لأن كلابه البوليسية تنتشر في كلّ مكان؛ وخلال ممارسته في الحكم يحصل الاندماج المذهل بين بيت المال وبيته!

إن علي بن الحسين بن علي هو حفيد ذلك الإنسان العظيم الذي ترجم القانون الأخلاقي إلى نظام حقوقي، ويوم قال عن جماهير الأمّة: إنهم «**إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق**» لم يكن سجيناً في زنزانة انفرادية أو فيلسوفاً على قمّة جبل، وإنما كان حاكماً عاماً على الشرق الأوسط بأسره. وهذه التجربة الفريدة في الحكم ظلّت تشعّ بكلّ وهجها الأخلاقي وبكلّ النظم الأخلاقية، التي شاء لها القدر أن تتجسّد في واقع الحياة وتغدو مركز إشعاع، يؤكّد إمكانية التطبيق ويبدد عنها غيوم المثالية والرومانسية أصغ إليه وهو يقول:

- «**ينبغي لمن ولي أمر قوم، أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع بتقويم غيره، وإلا كان بمنزلة من رام استقامة ظل العود قبل أن يستقيم ذلك العود**»!
- «**أشقى الرعاة من شقيت به رعيته**».
- «**ما أقبح الغدر من السلطان**».
- «**العدل صورة واحدة والجور صور كثيرة؛ ولهذا سهل ارتكاب الجور وصعب تحرّي العدل**».
- «**عدل السلطان خير من خصب الزمان**».
- «**العامل بالظّلمِ والمعينُ علَيه والراضِي بِه شُركاءُ ثلاثة**»[١١].

وبالرغم من صخب الحوادث، فقد صدرت رسالة الحقوق متوازنة؛ لأنها نبعت من نفس إنسانية عميقة الغور وهكذا هي الأعماق دائماً مغمورة بالجلال مفعمة بالطمأنينة.. حتى تلك المأساة الدامية في ظهيرة عاشوراء سنة ٦١ هـ ـ وقد شهد تفاصيلها المؤلمة ـ ما تلقى منها سوى الوهج الأخلاقي الحضاري، ولعلّ آخر مشهد ظل في ذاكرة زين العابدين هو منظر والده الحسين يحمل ابنه الرضيع الظامئ، يطلب له قطرة ماء من نهر الفرات الزخّار؛ فكان نصيبه سهم من جندي «الحكومة» ينبت في رقبته الرقيقة... لحظتها ملأ والده كفّه من تلك الدماء الوردية ورمى بها نحو السماء قائلاً: «**اللهم لا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح**»[١٢]!

من أجل هذا كان يوم عاشوراء أطول يوم في التاريخ العربي؛ لأنّه يشكل علامة سؤال كُبرى حول مشروعية السلطة في كلّ الأرض العربية والإسلامية الممتدة من «**طنجة**» إلى «**جاكرتا**»... «**ومن عدن إلى سمرقند إلى أفريقيا إلى سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينيا**».

وقبل البدء في استعراض بنود هذه الرسالة الحقوقية الهامّة، نشير إلى أن قيمتها

الأساسية، تكمن في أنها صادرة من نفس إنسانية، بلغت من مراتب السمو والكمال، ما كتب لها الخلود المقرون بالإجلال والاحترام.

من نفس تشعر بامتداداتها في جذور الأزل إلى الأبد، فجاءت شمولية في الزمان والمكان والإنسان؛ وهو إحساس يشعرك بوشائج الكون والطبيعة والمجتمعات البشرية وتلك الحقوق المتبادلة بين عناصر العالم بأسره؛ كما أن قوّتها أيضاً، تكمن في أنها صدرت في وقت كانت فيه الخيول العربية ـ التي أريد لها أن تفتح العالم على منابع النور ـ قد ارتدّت لتسحق كرامة الإنسان العربي المسلم وتدوس على حقوقه، في كلّ مكان يرتفع فيه صوت، غير صوت التسبيح بمجد السلطان.

ومن المؤكّد أن تحويل مفردات هذه المنظومة الأخلاقية التي اشتملت عليها الرسالة إلى نظام حقوقي سيكون أكبر إنجاز حضاري يقوم به المجتمع العربي في العصر الراهن.

ترتكز المنظومة الحقوقية على محور أساسي بالغ الأهمية؛ وهو امتياز يجعل من الرسالة فريدة في طرحها؛ لأنها تتمحور حول الحق المطلق ومن هذا الأساس تستمد سائر الحقوق مشروعيتها وقوّتها.

وهذا ما صرَّحت به مقدّمة الرسالة وعبّرت عنه بالإحاطة الكاملة في كلّ حركة أو سكون أو محطّة في الطريق. وهذا الارتكاز يعبّر عن وعي لحركة الإنسان وموقعه في العالَم «**ألا وأنه بالحق قامت السماوات والأرض**»[١٣]، ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ**﴾[١٤] فهذه القوانين الكونية التي تسيّر الوجود، تهتف بالتوازن والعدالة والحق. ومن هنا، يجب أن يكون المجتمع الإنساني انعكاساً صادقاً لهذا الوجود وأن يرتكز على ذات الأسس؛ التي يرتكز عليها لكي يتحقق الانسجام فيه والتوازن والإقناع المنشود.

النص الكامل لرسالة الحقوق

المقدّمة

«اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّ لِلَّهِ عَلَيْكَ حُقُوقاً مُحِيطَةً بِكَ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ تَحَرَّكْتَهَا أَوْ سَكَنَةٍ سَكَنْتَهَا أَوْ مَنْزِلَةٍ نَزَلْتَهَا، أَوْ جَارِحَةٍ قَلَبْتَهَا أَوْ آلَةٍ تَصَرَّفْتَ بِهَا، بَعْضُهَا أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ.

وَأَكْبَرُ حُقُوقِ اللَّهِ عَلَيْكَ مَا أَوْجَبَهُ لِنَفْسِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ حَقِّهِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْحُقُوقِ وَمِنْهُ تَفَرَّعَ ثُمَّ أَوْجَبَهُ عَلَيْكَ لِنَفْسِكَ مِنْ قَرْنِكَ إِلَى قَدَمِكَ عَلَى اخْتِلَافِ جَوَارِحِكَ؛ فَجَعَلَ

لِبَصَرِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِسَمْعِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِلِسَانِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِيَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِرِجْلِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِبَطْنِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِفَرْجِكَ عَلَيْكَ حَقّاً فَهَذِهِ الْجَوَارِحُ السَّبْعُ الَّتِي بِهَا تَكُونُ الأَفْعَالُ.

ثُمَّ جَعَلَ عَزَّ وَجَلَّ لأَفْعَالِكَ عَلَيْكَ حُقُوقاً، فَجَعَلَ لِصَلَاتِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِصَوْمِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِصَدَقَتِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلِهَدْيِكَ عَلَيْكَ حَقّاً وَلأَفْعَالِكَ عَلَيْكَ حَقّاً.

ثُمَّ تَخْرُجُ الْحُقُوقُ مِنْكَ إِلَى غَيْرِكَ مِنْ ذَوِي الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْكَ وَأَوْجَبُهَا عَلَيْكَ حَقُّ أَئِمَّتِكَ، ثُمَّ حُقُوقُ رَعِيَّتِكَ ثُمَّ حُقُوقُ رَحِمِكَ، فَهَذِهِ حُقُوقٌ يَتَشَعَّبُ مِنْهَا حُقُوقٌ فَحُقُوقُ أَئِمَّتِكَ ثَلَاثَةٌ، أَوْجَبُهَا عَلَيْكَ حَقُّ سَائِسِكَ بِالسُّلْطَانِ ثُمَّ سَائِسِكَ بِالْعِلْمِ، ثُمَّ حَقُّ سَائِسِكَ بِالْمُلْكِ وَكُلُّ سَائِسٍ إِمَامٌ.

وَحُقُوقُ رَعِيَّتِكَ ثَلَاثَةٌ أَوْجَبُهَا عَلَيْكَ حَقُّ رَعِيَّتِكَ بِالسُّلْطَانِ، ثُمَّ حَقُّ رَعِيَّتِكَ بِالْعِلْمِ فَإِنَّ الْجَاهِلَ رَعِيَّةُ الْعَالِمِ، وَحَقُّ رَعِيَّتِكَ بِالْمُلْكِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَمَا مَلَكْتَ مِنَ الإِماء. وَحُقُوقُ رَحِمِكَ كَثِيرَةٌ مُتَّصِلَةٌ بِقَدْرِ اتِّصَالِ الرَّحِمِ فِي الْقَرَابَةِ.

فَأَوْجَبُهَا عَلَيْكَ حَقُّ أُمِّكَ، ثُمَّ حَقُّ أَبِيكَ، ثُمَّ حَقُّ وَلَدِكَ، ثُمَّ حَقُّ أَخِيكَ، ثُمَّ الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ، وَالْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، ثُمَّ حَقُّ مَوْلَاكَ الْمُنْعِمِ عَلَيْكَ، ثُمَّ حَقُّ مَوْلَاكَ الْجَارِي نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ، ثُمَّ حَقُّ ذِي الْمَعْرُوفِ لَدَيْكَ ثُمَّ حَقُّ مُؤَذِّنِكَ بِالصَّلَاةِ ثُمَّ حَقُّ إِمَامِكَ فِي صَلَاتِكَ، ثُمَّ حَقُّ جَلِيسِكَ، ثُمَّ حَقُّ جَارِكَ، ثُمَّ حَقُّ صَاحِبِكَ، ثُمَّ حَقُّ شَرِيكِكَ، ثُمَّ حَقُّ مَالِكَ، ثُمَّ حَقُّ غَرِيمِكَ الَّذِي تُطَالِبُهُ، ثُمَّ حَقُّ غَرِيمِكَ الَّذِي يُطَالِبُكَ، ثُمَّ حَقُّ خَلِيطِكَ، ثُمَّ حَقُّ خَصْمِكَ الْمُدَّعِي عَلَيْكَ، ثُمَّ حَقُّ خَصْمِكَ الَّذِي تَدَّعِي عَلَيْهِ، ثُمَّ حَقُّ مُسْتَشِيرِكَ، ثُمَّ حَقُّ الْمُشِيرِ عَلَيْكَ، ثُمَّ حَقُّ مُسْتَنْصِحِكَ، ثُمَّ حَقُّ النَّاصِحِ لَكَ ثُمَّ حَقُّ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْكَ، ثُمَّ حَقُّ مَنْ هُوَ أَصْغَرُ مِنْكَ، ثُمَّ حَقُّ سَائِلِكَ، ثُمَّ حَقُّ مَنْ سَأَلْتَهُ، ثُمَّ حَقُّ مَنْ جَرَى لَكَ عَلَى يَدَيْهِ مَسَاءَةٌ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ مَسَرَّةٌ بِذَلِكَ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ عَنْ تَعَمُّدٍ مِنْهُ أَوْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ مِنْهُ، ثُمَّ حَقُّ أَهْلِ مِلَّتِكَ عَامَّةً، ثُمَّ حَقُّ أَهْلِ الذِّمَّةِ، ثُمَّ الْحُقُوقُ الْجَارِيَةُ بِقَدْرِ عِلَلِ الْأَحْوَالِ وَتَصَرُّفِ الْأَسْبَابِ فَطُوبَى لِمَنْ أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى قَضَاءِ مَا أَوْجَبَ عَلَيْهِ مِنْ حُقُوقِهِ وَوَفَّقَهُ وَسَدَّدَهُ».

هذا هو مدخل الرسالة الحقوقية التي تصرّح بأنها تستند في قوّتها إلى حقوق الله؛ حيث تتفرع جميع الحقوق عن ذلك. وما ينبغي الإشارة إليه أن المخاطب في هذه الرسالة هو الضمير الإنساني؛ لأنه لا يخاطب شريحة دون أخرى، وإنما يتوجّه بالخطاب إلى الإنسان حاكماً أو محكوماً، رئيساً كان أم مرؤوساً، صغيراً كان أم كبيراً.

المواد الحقوقية

وهي خمسون مادّة تبدأ بحسب أهميتها وترتيبها؛ فتبدأ بحق الله ثمَّ حق الإنسان الذي ينقسم إلى قسمين رئيسين: حقوق الذات وحقوق الآخر.

١ـ فَأَمَّا حَقُّ اللَّهِ الْأَكْبَرُ فَأَنَّكَ تَعْبُدُهُ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً. فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ بِإِخْلَاصٍ جَعَلَ لَكَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَكْفِيَكَ أَمْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَحْفَظَ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْهَا.

٢ـ وَأَمَّا حَقُّ نَفْسِكَ عَلَيْكَ فَأَنْ تَسْتَوْفِيَهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، فَتُؤَدِّيَ إِلَى لِسَانِكَ حَقَّهُ، وَإِلَى سَمْعِكَ حَقَّهُ، وَإِلَى بَصَرِكَ حَقَّهُ، وَإِلَى يَدِكَ حَقَّهَا، وَإِلَى رِجْلِكَ حَقَّهَا، وَإِلَى بَطْنِكَ حَقَّهُ، وَإِلَى فَرْجِكَ حَقَّهُ وَتَسْتَعِينُ بِاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ.

٣ـ وَأَمَّا حَقُّ اللِّسَانِ فَإِكْرَامُهُ عَنِ الخَنَى وَتَعْوِيدُهُ عَلَى الْخَيْرِ، وَحَمْلُهُ عَلَى الأَدَبِ، وَإِجْمَامُهُ إِلَّا لِمَوْضِعِ الحاجَةِ وَالمَنْفَعَةِ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَإِعْفَاؤُهُ مِنَ الْفُضُولِ الشَّنِعَةِ الْقَلِيلَةِ الْفَائِدَةِ الَّتِي لَا يُؤْمَنُ ضَرَرُهَا مَعَ قِلَّةِ عَائِدَتِهَا وَبُعْدِ شَاهِدِ الْعَقْلِ وَالدَّلِيلِ عَلَيْهِ وَتَزَيُّنُ الْعَاقِلِ بِعَقْلِهِ حُسْنُ سِيرَتِهِ فِي لِسَانِهِ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

٤ـ وَأَمَّا حَقُّ السَّمْعِ فَتَنْزِيهُهُ عَنْ أَنْ تَجْعَلَهُ طَرِيقاً إِلَى قَلْبِكَ، إِلَّا لِفَوْهَةٍ كَرِيمَةٍ تُحْدِثُ فِي قَلْبِكَ خَيْراً أَوْ تُكْسِبُ خُلُقاً كَرِيماً، فَإِنَّهُ بَابُ الْكَلَامِ إِلَى الْقَلْبِ يُؤَدِّي بِهِ ضُرُوبُ الْمَعَانِي عَلَى مَا فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٥ـ وَأَمَّا حَقُّ بَصَرِكَ فَغَضُّهُ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ وَتَرْكُ ابْتِذَالِهِ إِلَّا لِمَوْضِعِ عِبْرَةٍ تَسْتَقْبِلُ بِهَا بَصَراً أَوْ تَعْتَقِدُ بِهَا عِلْماً فَإِنَّ الْبَصَرَ بَابُ الِاعْتِبَارِ.

٦ـ وَأَمَّا حَقُّ رِجْلَيْكَ فَأَنْ لَا تَمْشِيَ بِهِمَا إِلَى مَا لا يَحِلُّ لَكَ، وَلَا تَجْعَلهما مَطِيَّتَكَ فِي الطَّرِيقِ الْمُسْتَخِفَّةِ بِأَهْلِهَا فِيهَا، فَإِنَّهَا حَامِلَتُكَ وَسَالِكَةٌ بِكَ مَسْلَكَ الدِّينِ وَالسَّبَقِ لَكَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٧ـ وَأَمَّا حَقُّ يَدِكَ فَأَنْ لَا تَبْسُطَهَا إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَكَ فَتَنَالَ بِمَا تَبْسُطُهَا إِلَيْهِ مِنَ اللهِ الْعُقُوبَةَ فِي الْآجِلِ وَمِنَ النَّاسِ بِلِسَانِ اللَّائِمَةِ فِي الْعَاجِلِ وَلَا تَقْبِضَهَا مِمَّا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهَا وَلَكِنْ تُوَقِّرَهَا بِقَبْضِهَا عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا لَا يَحِلُّ لَهَا وَتَبْسُطَهَا إِلَى كَثِيرٍ مِمَّا لَيْسَ عَلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ عقلَتْ وَشُرِفَتْ فِي الْعَاجِلِ وَجَبَ لَهَا حُسْنُ الثَّوَابِ مِنَ اللَّهِ فِي الْآجِلِ.

٨ـ وَأَمَّا حَقُّ بَطْنِكَ فَأَنْ لَا تَجْعَلَهُ وِعَاءً لِقَلِيلٍ مِنَ الحَرَامِ وَلَا لِكَثِيرٍ وَأَنْ تَقْتَصِدَ لَهُ فِي الحَلَالِ وَلَا تُخْرِجَهُ مِنْ حَدِّ التَّقْوِيَةِ إِلَى حَدِّ التَّهْوِينِ وَذَهَابِ الْمُرُوَّةِ وَضَبْطُهُ إِذَا هَمَّ بِالجُوعِ

وَالظَّمَإِ فَإِنَّ الشِّبَعَ الْمُنْتَهِيَ بِصَاحِبِهِ إِلَى التُّخَمِ مَكْسَلَةٌ وَمَثْبَطَةٌ وَمَقْطَعَةٌ عَنْ كُلِّ بِرٍّ وَكَرَمٍ، وَأَنَّ الرِّيَّ الْمُنْتَهِيَ بِصَاحِبِهِ إِلَى السُّكْرِ مَسْخَفَةٌ وَمَجْهَلَةٌ وَمَذْهَبَةٌ لِلْمُرُوَّةِ.

٩ـ وَأَمَّا حَقُّ فَرْجِكَ فَحِفْظُهُ مِمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ وَالِاسْتِعَانَةُ عَلَيْهِ بِغَضِّ الْبَصَرِ فَإِنَّهُ مِنْ أَعْوَنِ الْأَعْوَانِ وَكَثْرَةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَالتَّهَدُّدِ لِنَفْسِكَ بِاللَّهِ وَالتَّخْوِيفِ لَهَا بِهِ وَبِاللَّهِ الْعِصْمَةُ وَالتَّأْيِيدُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.

ثُمَّ حقوقُ الأفعال

١٠ـ فَأَمَّا حَقُّ الصَّلَاةِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا وِفَادَةٌ إِلَى اللَّهِ وَأَنَّكَ قَائِمٌ بِهَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ كُنْتَ خَلِيقاً أَنْ تَقُومَ فِيهَا مَقَامَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ الرَّاغِبِ الرَّاهِبِ الْخَائِفِ الرَّاجِي الْمِسْكِينِ الْمُتَضَرِّعِ الْمُعَظِّمِ مَنْ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالسُّكُونِ وَالْإِطْرَاقِ وَخُشُوعِ الْأَطْرَافِ وَلِينِ الْجَنَاحِ وَحُسْنِ الْمُنَاجَاةِ لَهُ فِي نَفْسِهِ وَالطَّلَبِ إِلَيْهِ فِي فَكَاكِ رَقَبَتِكَ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا خَطِيئَتُكَ وَاسْتَهْلَكَتْهَا ذُنُوبُكَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

١١ـ وَأَمَّا حَقُّ الصَّوْمِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ حِجَابٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِكَ وَسَمْعِكَ وَبَصَرِكَ وَفَرْجِكَ وَبَطْنِكَ لِيَسْتُرَكَ بِهِ مِنَ النَّارِ. وَهَكَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ فَإِنْ سَكَنَتْ أَطْرَافُكَ فِي حَجَبَتِهَا رَجَوْتَ أَنْ تَكُونَ مَحْجُوباً وَإِنْ أَنْتَ تَرَكْتَهَا تَضْطَرِبُ فِي حِجَابِهَا وَتَرْفَعُ جَنَبَاتِ الْحِجَابِ فَتَطَّلِعُ إِلَى مَا لَيْسَ لَهَا بِالنَّظْرَةِ الدَّاعِيَةِ لِلشَّهْوَةِ وَالْقُوَّةِ الْخَارِجَةِ عَنْ حَدِّ التَّقِيَّةِ لِلَّهِ لَمْ تَأْمَنْ أَنْ تَخْرِقَ الْحِجَابَ وَتَخْرُجَ مِنْهُ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

١٢ـ وَأَمَّا حَقُّ الصَّدَقَةِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا ذُخْرُكَ عِنْدَ رَبِّكَ وَوَدِيعَتُكَ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى الْإِشْهَادِ فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ كُنْتَ بِمَا اسْتَوْدَعْتَهُ سِرّاً أَوْثَقَ بِمَا اسْتَوْدَعْتَهُ عَلَانِيَةً وَكُنْتَ جَدِيراً أَنْ تَكُونَ أَسْرَرْتَ إِلَيْهِ أَمْراً أَعْلَنْتَهُ وَكَانَ الْأَمْرُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ فِيهَا سِرّاً عَلَى كُلِّ حَالٍ وَلَمْ تَسْتَظْهِرْ عَلَيْهِ، فِيمَا اسْتَوْدَعْتَهُ مِنْهَا إِشْهَادَ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ عَلَيْهِ بِهَا كَأَنَّهَا أَوْثَقُ فِي نَفْسِكَ وَ كَأَنَّكَ لَا تَثِقُ بِهِ فِي تَأْدِيَةِ وَدِيعَتِكَ إِلَيْكَ، ثُمَّ لَمْ تَمْتَنَّ بِهَا عَلَى أَحَدٍ؛ لِأَنَّهَا لَكَ فَإِذَا امْتَنَنْتَ بِهَا لَمْ تَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ بِهَا مِثْلَ تَهْجِينِ حَالِكَ مِنْهَا إِلَى مَنْ مَنَنْتَ بِهَا عَلَيْهِ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّكَ لَمْ تُرِدْ نَفْسَكَ بِهَا وَلَوْ أَرَدْتَ نَفْسَكَ بِهَا لَمْ تَمْتَنَّ بِهَا عَلَى أَحَدٍ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

١٣ـ وَأَمَّا حَقُّ الْهَدْيِ فَأَنْ تُخْلِصَ بِهَا الْإِرَادَةَ إِلَى رَبِّكَ وَالتَّعَرُّضَ لِرَحْمَتِهِ وَقَبُولِهِ وَلَا تُرِيدَ عُيُونَ النَّاظِرِينَ دُونَهُ فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ تَكُنْ مُتَكَلِّفاً وَلَا مُتَصَنِّعاً وَكُنْتَ إِنَّمَا تَقْصِدُ إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يُرَادُ بِالْيَسِيرِ وَلَا يُرَادُ بِالْعَسِيرِ كَمَا أَرَادَ بِخَلْقِهِ التَّيْسِيرَ وَلَمْ يُرِدْ بِهِمُ التَّعْسِيرَ وَكَذَلِكَ التَّذَلُّلُ أَوْلَى بِكَ مِنَ التَّدَهْقُنِ؛ لِأَنَّ الْكُلْفَةَ وَالْمَؤُونَةَ فِي الْمُتَدَهْقِنِينَ فَأَمَّا التَّذَلُّلُ

وَالتَّمَسْكُنُ فَلَا كُلْفَةَ فِيهِمَا وَلَا مَؤونَةَ عَلَيْهِمَا؛ لِأَنَّهُمَا الخِلْقَةُ وَهُمَا مَوْجُودَانِ فِي الطَّبِيعَةِ. وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

حقوق الرؤساء

١٤ـ فَأَمَّا حَقُّ سَائِسِكَ بِالسُّلْطَانِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ جُعِلْتَ لَهُ فِتْنَةً وَأَنَّهُ مُبْتَلًى فِيكَ بِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُ عَلَيْكَ مِنَ السُّلْطَانِ، وَأَنْ تُخْلِصَ لَهُ فِي النَّصِيحَةِ، وَأَنْ لَا تُمَاحِكَهُ وَقَدْ بُسِطَتْ يَدُهُ عَلَيْكَ، فَتَكُونَ سَبَبَ هَلَاكِ نَفْسِكَ وَهَلَاكِه، وَتَذَلَّلْ وَتَلَطَّفْ لِإِعْطَائِهِ مِنَ الرِّضَى مَا يَكُفُّهُ عَنْكَ وَلَا يُضِرُّ بِدِينِكَ وَتَسْتَعِينُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ بِاللَّهِ وَلَا تُعَانِدْهُ فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ عَقَقْتَهُ وَعَقَقْتَ نَفْسَكَ فَعَرَّضْتَهَا لِمَكْرُوهِهِ وَعَرَّضْتَهُ لِلْهَلَكَةِ فِيكَ وَكُنْتَ خَلِيقاً أَنْ تَكُونَ مُعِيناً لَهُ عَلَى نَفْسِكَ وَشَرِيكاً لَهُ فِيمَا أَتَى إِلَيْكَ. وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

١٥ـ وَأَمَّا حَقُّ سَائِسِكَ بِالْعِلْمِ فَالتَّعْظِيمُ لَهُ وَالتَّوْقِيرُ لِمَجْلِسِهِ وَحُسْنُ الِاسْتِمَاعِ إِلَيْهِ وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ وَالمَعُونَةُ لَهُ عَلَى نَفْسِكَ فِيمَا لَا غِنَى بِكَ عَنْهُ مِنَ الْعِلْمِ بِأَنْ تُفَرِّغَ لَهُ عَقْلَكَ، وَتُحَضِّرَهُ فَهْمَكَ، وَتُذَكِّيَ لَهُ قَلْبَكَ، وَتُجَلِّيَ لَهُ بَصَرَكَ بِتَرْكِ اللَّذَّاتِ، وَنَقْصِ الشَّهَوَاتِ، وَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ فِيمَا أَلْقَى إِلَيْكَ رَسُولُهُ إِلَى مَنْ لَقِيَكَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ فَلَزِمَكَ حُسْنُ التَّأْدِيَةِ عَنْهُ إِلَيْهِمْ وَلَا تَخُنْهُ فِي تَأْدِيَةِ رِسَالَتِهِ وَالْقِيَامِ بِهَا عَنْهُ إِذَا تَقَلَّدْتَهَا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

١٦ـ وَأَمَّا حَقُّ سَائِسِكَ بِالْمُلْكِ فَنَحْوُ مَنْ سَائِسُكَ بِالسُّلْطَانِ إِلَّا أَنَّ هَذَا يَمْلِكُ مَا لَا يَمْلِكُهُ ذَاكَ تَلْزَمُكَ طَاعَتُهُ فِيمَا دَقَّ وَجَلَّ مِنْكَ (إِلَّا أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ وُجُوبِ حَقِّ اللَّهِ وَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ حَقِّهِ) وَحُقُوقِ الْخَلْقِ فَإِذَا قَضَيْتَهُ رَجَعْتَ إِلَى حَقِّهِ فَتَشَاغَلْتَ بِهِ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

حقوق المرؤوسين

١٧ـ فَأَمَّا حُقُوقُ رَعِيَّتِكَ بِالسُّلْطَانِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ إِنَّمَا اسْتَرْعَيْتَهُمْ بِفَضْلِ قُوَّتِكَ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُ إِنَّمَا أَحَلَّهُمْ مَحَلَّ الرَّعِيَّةِ لَكَ ضَعْفُهُمْ وَذُلُّهُمْ؛ فَمَا أَوْلَى مَنْ كَفَاكَهُ ضَعْفُهُ وَذُلُّهُ حَتَّى صَيَّرَهُ لَكَ رَعِيَّةً وَصَيَّرَ حُكْمَكَ عَلَيْهِ نَافِذاً؛ لَا يَمْتَنِعُ مِنْكَ بِعِزَّةٍ وَلَا قُوَّةٍ وَلَا يَسْتَنْصِرُ فِيمَا تَعَاظَمَهُ مِنْكَ إِلَّا بِاللَّهِ: بِالرَّحْمَةِ وَالْحِيَاطَةِ وَالْأَنَاةِ. وَمَا أَوْلَاكَ إِذَا عَرَفْتَ مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِ هَذِهِ الْعِزَّةِ وَالْقُوَّةِ الَّتِي بِهَا أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ شَاكِراً؛ وَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ أَعْطَاهُ فِيمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

١٨ـ وَأَمَّا حَقُّ رَعِيَّتِكَ بِالْعِلْمِ، فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَكَ لَهُمْ فِيمَا آتَاكَ مِنَ الْعِلْمِ وَوَلَّاكَ مِنْ خِزَانَةِ الْحِكْمَةِ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ فِيمَا وَلَّاكَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ وَقُمْتَ بِهِ لَهُمْ مَقَامَ الْخَازِنِ الشَّفِيقِ

النَّاصِحِ لِمَوْلَاهُ فِي عَبِيدِهِ الصَّابِرِ الْمُحْتَسِبِ الَّذِي إِذَا رَأَى ذَا حَاجَةٍ أَخْرَجَ لَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي فِي يَدَيْهِ كُنْتَ رَاشِداً، وَكُنْتَ لِذَلِكَ آمِلًا مُعْتَقِداً وإلا كُنْتَ لَهُ خَائِناً وَلِخَلْقِهِ ظَالِماً وَلِسَلَبِهِ وَعِزِّهِ مُتَعَرِّضاً.

١٩- وَأَمَّا حَقُّ رَعِيَّتِكَ بِمِلْكِ النِّكَاحِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهَا سَكَناً وَمُسْتَرَاحاً وَأُنْساً وَوَاقِيَةً وَكَذَلِكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا يَجِبُ أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ عَلَى صَاحِبِهِ وَيَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ نِعْمَةٌ مِنْهُ عَلَيْهِ وَوَجَبَ أَنْ يُحْسِنَ صُحْبَةَ نِعْمَةِ اللَّهِ وَيُكْرِمَهَا وَيَرْفُقَ بِهَا، وَإِنْ كَانَ حَقُّكَ عَلَيْهَا أَغْلَظَ وَطَاعَتُكَ بِهَا أَلْزَمَ فِيمَا أَحَبَّتْ وَكَرِهَتْ، مَا لَمْ تَكُنْ مَعْصِيَةً، فَإِنَّ لَهَا حَقَّ الرَّحْمَةِ وَالْمُؤَانَسَةِ وَمَوْضِعَ السُّكُونِ إِلَيْهَا قَضَاءَ اللَّذَّةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا وَذَلِكَ عَظِيمٌ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٢٠- وَأَمَّا حَقُّ رَعِيَّتِكَ بِمِلْكِ الْيَمِينِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ خَلْقُ رَبِّكَ وَلَحْمُكَ وَدَمُكَ، وَأَنَّكَ تَمْلِكُهُ لَا أَنْتَ صَنَعْتَهُ دُونَ اللَّهِ، وَلَا خَلَقْتَ لَهُ سَمْعاً وَلَا بَصَراً، وَلَا أَجْرَيْتَ لَهُ رِزْقاً وَلَكِنَّ اللَّهَ كَفَاكَ ذَلِكَ بِمَنْ سَخَّرَهُ لَكَ وَائْتَمَنَكَ عَلَيْهِ وَاسْتَوْدَعَكَ إِيَّاهُ لِتَحْفَظَهُ فِيهِ وَتَسِيرَ فِيهِ بِسِيرَتِهِ، فَتُطْعِمَهُ مِمَّا تَأْكُلُ، وَتُلْبِسَهُ مِمَّا تَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفَهُ مَا لَا يُطِيقُ، فَإِنْ كَرِهْتَ خَرَجْتَ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ وَاسْتَبْدَلْتَ بِهِ وَلَمْ تُعَذِّبْ خَلْقَ اللَّهِ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

الحقوق الاجتماعية

٢١- فَحَقُّ أُمِّكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا حَمَلَتْكَ حَيْثُ لَا يَحْمِلُ أَحَدٌ أَحَداً، وَأَطْعَمَتْكَ مِنْ ثَمَرَةِ قَلْبِهَا مَا لَا يُطْعِمُ أَحَدٌ أَحَداً، وَأَنَّهَا وَقَتْكَ بِسَمْعِهَا وَبَصَرِهَا وَيَدِهَا وَرِجْلِهَا وَشَعْرِهَا وَبَشَرِهَا وَجَمِيعِ جَوَارِحِهَا؛ مُسْتَبْشِرَةً بِذَلِكَ فَرِحَةً مُؤَمِّلَةً مُحْتَمِلَةً لِمَا فِيهِ مَكْرُوهُهَا وَأَلَمُهَا وَثِقْلُهَا وَغَمُّهَا؛ حَتَّى دَفَعَتْهَا عَنْكَ يَدُ الْقُدْرَةِ، وَأُخْرِجْتَ إِلَى الْأَرْضِ فَرَضِيَتْ أَنْ تَشْبَعَ وَتَجُوعَ هِيَ، وَتَكْسُوَكَ وَتَعْرَى وَتُرْوِيَكَ وَتَظْمَأَ، وَتُظِلَّكَ وَتَضْحَى، وَتُنَعِّمَكَ بِبُؤْسِهَا وَتُلَذِّذَكَ بِالنَّوْمِ بِأَرَقِّهَا. وَكَانَ بَطْنُهَا لَكَ وِعَاءً وَحُجْرُهَا لَكَ حِوَاءً وَثَدْيُهَا لَكَ سِقَاءً وَنَفْسُهَا لَكَ وِقَاءً تُبَاشِرُ حَرَّ الدُّنْيَا وَبَرْدَهَا لَكَ وَدُونَكَ، فَتَشْكُرُهَا عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ وَلَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا بِعَوْنِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ.

٢٢- وَأَمَّا حَقُّ أَبِيكَ فَتَعْلَمُ أَنَّهُ أَصْلُكَ وَأَنَّكَ فَرْعُهُ وَأَنَّكَ لَوْلَاهُ لَمْ تَكُنْ، فَمَهْمَا رَأَيْتَ فِي نَفْسِكَ مِمَّا يُعْجِبُكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ أَبَاكَ أَصْلُ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ فِيهِ وَاحْمَدِ اللَّهَ وَاشْكُرْهُ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٢٣- وَأَمَّا حَقُّ وَلَدِكَ فَتَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْكَ وَمُضَافٌ إِلَيْكَ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا بِخَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَأَنَّكَ مَسْؤُولٌ عَمَّا وُلِّيتَهُ مِنْ حُسْنِ الْأَدَبِ وَالدَّلَالَةِ إِلَى رَبِّهِ وَالْمَعُونَةِ لَهُ عَلَى طَاعَتِهِ فِيكَ وَفِي نَفْسِهِ، فَمُثَابٌ عَلَى ذَلِكَ وَمُعَاقَبٌ، فَاعْمَلْ فِي أَمْرِهِ عَمَلَ الْمُتَزَيِّنِ بِحُسْنِ أَثَرِهِ عَلَيْهِ فِي عَاجِلِ

الدُّنْيَا، المُعَذِّرُ إِلَى رَبِّهِ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِحُسْنِ الْقِيَامِ عَلَيْهِ وَالأَخْذِ لَهُ مِنْهُ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٢٤ـ وَأَمَّا حَقُّ أَخِيكَ فَتَعْلَمُ أَنَّهُ يَدُكَ الَّتِي تَبْسُطُهَا، وَظَهْرُكَ الَّذِي تَلْجَأُ إِلَيْهِ، وَعِزُّكَ الَّذِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وَقُوَّتُكَ الَّتِي تَصُولُ بِهَا، وَلَا تَتَّخِذْهُ سِلَاحاً عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا عُدَّةً لِلظُّلْمِ بِحَقِّ اللَّهِ، وَلَا تَدَعْ نُصْرَتَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَعُونَتَهُ عَلَى عَدُوِّهِ وَالْحَوْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَيَاطِينِهِ، وَتَأْدِيَةَ النَّصِيحَةِ إِلَيْهِ، وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ فِي اللَّهِ، فَإِنِ انْقَادَ لِرَبِّهِ وَأَحْسَنَ الْإِجَابَةَ لَهُ وَإِلَّا فَلْيَكُنِ اللَّهُ آثَرَ عِنْدَكَ وَأَكْرَمَ عَلَيْكَ مِنْهُ.

٢٥ـ وَأَمَّا حَقُّ الْمُنْعِمِ عَلَيْكَ بِالْوَلَاءِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ أَنْفَقَ فِيكَ مَالَهُ، وَأَخْرَجَكَ مِنْ ذُلِّ الرِّقِّ وَوَحْشَتِهِ إِلَى عِزِّ الْحُرِّيَّةِ وَأُنْسِهَا وَأَطْلَقَكَ مِنْ أَسْرِ الْمَلَكَةِ، وَفَكَّ عَنْكَ حَلَقَ الْعُبُودِيَّةِ، وَأَوْجَدَكَ رَائِحَةَ الْعِزِّ، وَأَخْرَجَكَ مِنْ سِجْنِ الْقَهْرِ، وَدَفَعَ عَنْكَ الْعُسْرَ، وَبَسَطَ لَكَ لِسَانَ الْإِنْصَافِ وَأَبَاحَكَ الدُّنْيَا كُلَّهَا فَمَلَّكَكَ نَفْسَكَ وَحَلَّ أَسْرَكَ وَفَرَّغَكَ لِعِبَادَةِ رَبِّكَ وَاحْتَمَلَ بِذَلِكَ التَّقْصِيرَ فِي مَالِهِ، فَتَعْلَمَ أَنَّهُ أَوْلَى الْخَلْقِ بِكَ بَعْدَ أُولِي رَحِمِكَ فِي حَيَاتِكَ وَمَوْتِكَ وَأَحَقُّ الْخَلْقِ بِنَصْرِكَ وَمَعُونَتِكَ وَمُكَافَئَتِكَ فِي ذَاتِ اللَّهِ، فَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْهِ نَفْسَكَ مَا احْتَاجَ إِلَيْكَ أَحَداً.

٢٦ـ وَأَمَّا حَقُّ مَوْلَاكَ الْجَارِيَةِ عَلَيْهِ نِعْمَتُكَ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَكَ حَامِيَةً عَلَيْهِ وَوَاقِيَةً وَنَاصِراً وَمَعْقِلاً، وَجَعَلَهُ لَكَ وَسِيلَةً وَسَبَباً بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَحْجُبَكَ عَنِ النَّارِ فَيَكُونَ فِي ذَلِكَ ثَوَابُكَ مِنْهُ فِي الْأَجِلِ وَيَحْكُمَ لَكَ بِمِيرَاثِهِ فِي الْعَاجِلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ رَحِمٌ مُكَافَأَةً لِمَا أَنْفَقْتَهُ مِنْ مَالِكَ عَلَيْهِ، وَقُمْتَ بِهِ مِنْ حَقِّهِ بَعْدَ إِنْفَاقِ مَالِكَ، فَإِنْ لَمْ تَخَفْهُ خِيفَ عَلَيْكَ أَنْ لَا يُطَيِّبَ لَكَ مِيرَاثَهُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٢٧ـ وَأَمَّا حَقُّ ذِي الْمَعْرُوفِ عَلَيْكَ فَأَنْ تَشْكُرَهُ وَتَذْكُرَ مَعْرُوفَهُ وَتَنْشُرَ لَهُ الْمَقَالَةَ الْحَسَنَةَ وَتُخْلِصَ لَهُ الدُّعَاءَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ كُنْتَ قَدْ شَكَرْتَهُ سِرّاً وَعَلَانِيَةً، ثُمَّ إِنْ أَمْكَنَ مُكَافَأَتُهُ بِالْفِعْلِ كَافَأْتَهُ، وَإِلَّا كُنْتَ مَرْصَداً لَهُ مُوَطِّناً نَفْسَكَ عَلَيْهَا.

٢٨ـ وَأَمَّا حَقُّ الْمُؤَذِّنِ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ مُذَكِّرُكَ بِرَبِّكَ، وَدَاعِيكَ إِلَى حَظِّكَ أَفْضَلُ أَعْوَانِكَ عَلَى قَضَاءِ الْفَرِيضَةِ الَّتِي افْتَرَضَهَا اللَّهُ عَلَيْكَ فَتَشْكُرَهُ عَلَى ذَلِكَ، شُكْرَكَ لِلْمُحْسِنِ إِلَيْكَ، وَإِنْ كُنْتَ فِي بَيْتِكَ مُتَّهَماً لِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لِلَّهِ فِي أَمْرِهِ مُتَّهَماً، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْكَ لَا شَكَّ فِيهَا فَأَحْسِنْ صُحْبَةَ نِعْمَةِ اللَّهِ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَيْهَا عَلَى كُلِّ حَالٍ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٢٩ـ وَأَمَّا حَقُّ إِمَامِكَ فِي صَلَاتِكَ فَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ تَقَلَّدَ السِّفَارَةَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ وَالْوِفَادَةَ إِلَى رَبِّكَ، وَتَكَلَّمَ عَنْكَ وَلَمْ تَتَكَلَّمْ عَنْهُ، وَدَعَا لَكَ وَلَمْ تَدْعُ لَهُ، وَطَلَبَ فِيكَ وَلَمْ تَطْلُبْ فِيهِ، وَكَفَاكَ هَمَّ الْمُقَامِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَالْمُسَاءَلَةَ لَهُ فِيكَ، وَلَمْ تَكْفِهِ ذَلِكَ فَإِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ

ذَلِكَ تَقْصِيرٌ كَانَ بِهِ دُونَكَ وَإِنْ كَانَ آثِماً لَمْ تَكُنْ شَرِيكَهُ فِيهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَيْهِ فَضْلٌ فَوَقَى نَفْسَكَ بِنَفْسِهِ، وَوَقَى صَلَاتَكَ بِصَلَاتِهِ فَتَشْكُرَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٣٠- وَأَمَّا حَقُّ الْجَلِيسِ فَأَنْ تُلِينَ لَهُ كَنَفَكَ، وَتُطِيبَ لَهُ جَانِبَكَ، وَتُنْصِفَهُ فِي مُجَارَاةِ اللَّفْظِ، وَلَا تُغْرِقَ فِي نَزْعِ اللَّحْظِ إِذَا لَحَظْتَ، وَتَقْصِدَ فِي اللَّفْظِ إِلَى إِفْهَامِهِ إِذَا لَفَظْتَ. وَإِنْ كُنْتَ الْجَلِيسَ إِلَيْهِ كُنْتَ فِي الْقِيَامِ عَنْهُ بِالْخِيَارِ وَإِنْ كَانَ الْجَالِسَ إِلَيْكَ كَانَ بِالْخِيَارِ وَلَا تَقُومَ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٣١- وَأَمَّا حَقُّ الْجَارِ فَحِفْظُهُ غَائِباً وَكَرَامَتُهُ شَاهِداً وَنُصْرَتُهُ وَمَعُونَتُهُ فِي الْحَالَيْنِ جَمِيعاً، لَا تَتَتَبَّعْ لَهُ عَوْرَةً، وَلَا تَبْحَثْ لَهُ عَنْ سَوْأَةٍ، لِتَعْرِفَهَا فَإِنْ عَرَفْتَهَا مِنْهُ مِنْ غَيْرِ إِرَادَةٍ مِنْكَ وَلَا تَكَلُّفٍ، كُنْتَ لِمَا عَلِمْتَ حَصِيناً وَسِتْراً سَتِيراً لَوْ بَحَثَتِ الْأَسِنَّةُ عَنْهُ ضَمِيراً لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ، لِانْطِوَائِهِ عَلَيْهِ لَا تَسَمَّعْ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ، وَلَا تُسْلِمْهُ عِنْدَ شَدِيدَةٍ، وَلَا تَحْسُدْهُ عِنْدَ نِعْمَةٍ. تُقِيلُ عَثْرَتَهُ، وَتَغْفِرُ زَلَّتَهُ، وَلَا تَدَّخِرْ حِلْمَكَ عَنْهُ إِذَا جَهِلَ عَلَيْكَ، وَلَا تَخْرُجْ أَنْ تَكُونَ سِلْماً لَهُ تَرُدُّ عَنْهُ لِسَانَ الشَّتِيمَةِ، وَتُبْطِلُ فِيهِ كَيْدَ حَامِلِ النَّصِيحَةِ، وَتُعَاشِرُهُ مُعَاشَرَةً كَرِيمَةً. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٣٢- وَأَمَّا حَقُّ الصَّاحِبِ فَأَنْ تَصْحَبَهُ بِالْفَضْلِ مَا وَجَدْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَإِلَّا فَلَا أَقَلَّ مِنَ الْإِنْصَافِ. وَأَنْ تُكْرِمَهُ كَمَا يُكْرِمُكَ، وَتَحْفَظَهُ كَمَا يَحْفَظُكَ، وَلَا يَسْبِقَكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ إِلَى مَكْرُمَةٍ فَإِنْ سَبَقَكَ كَافَأْتَهُ، وَلَا تَقْصِدَ بِهِ عَمَّا يَسْتَحِقُّ مِنَ الْمَوَدَّةِ. تُلْزِمُ نَفْسَكَ نَصِيحَتَهُ وَحِيَاطَتَهُ، وَمُعَاضَدَتَهُ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ وَمَعُونَتَهُ عَلَى نَفْسِهِ فِيمَا لَا يَهُمُّ بِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ رَبِّهِ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِ رَحْمَةً وَلَا تَكُونُ عَلَيْهِ عَذَاباً. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٣٣- وَأَمَّا حَقُّ الشَّرِيكِ فَإِنْ غَابَ كَفَيْتَهُ، وَإِنْ حَضَرَ سَاوَيْتَهُ. وَلَا تَعْزِمْ عَلَى حُكْمِكَ دُونَ حُكْمِهِ، وَلَا تَعْمَلْ بِرَأْيِكَ دُونَ مُنَاظَرَتِهِ، وَتَحْفَظُ عَلَيْهِ مَالَهُ، وَتَنْفِي عَنْهُ خِيَانَتَهُ، فِيمَا عَزَّ أَوْ هَانَ فَإِنَّهُ بَلَغَنَا (أَنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَتَخَاوَنَا). وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٣٤- وَأَمَّا حَقُّ الْمَالِ فَأَنْ لَا تَأْخُذَهُ إِلَّا مِنْ حِلِّهِ، وَلَا تُنْفِقَهُ إِلَّا فِي حِلِّهِ، وَلَا تُحَرِّفَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا تَصْرِفَهُ عَنْ حَقَائِقِهِ، وَلَا تَجْعَلَهُ إِذَا كَانَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ، وَسَبَباً إِلَى اللَّهِ، وَلَا تُؤْثِرَ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ مَنْ لَعَلَّهُ لَا يَحْمَدُكَ، وَبِالْحَرِيِّ أَنْ لَا يُحْسِنَ خِلَافَتَهُ فِي تَرِكَتِكَ وَلَا يَعْمَلَ فِيهِ بِطَاعَةِ رَبِّكَ، فَتَكُونَ مُعِيناً لَهُ عَلَى ذَلِكَ وَبِمَا أَحْدَثَ فِي مَالِكَ أَحْسَنَ نَظَراً لِنَفْسِهِ، فَيَعْمَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ فَيَذْهَبَ بِالْغَنِيمَةِ وَتَبُوءَ بِالْإِثْمِ وَالْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ مَعَ التَّبِعَةِ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٣٥- وَأَمَّا حَقُّ الْغَرِيمِ الطَّالِبِ لَكَ فَإِنْ كُنْتَ مُوسِراً، أَوْفَيْتَهُ، وَكَفَيْتَهُ، وَأَغْنَيْتَهُ، وَلَمْ تَرْدُدْهُ

وَتَمْطُلُهُ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ص) قَالَ: «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ». وَإِنْ كُنْتَ مُعْسِراً أَرْضَيْتَهُ بِحُسْنِ الْقَوْلِ وَطَلَبْتَ إِلَيْهِ طَلَباً جَمِيلاً، وَرَدَدْتَهُ عَنْ نَفْسِكَ رَدّاً لَطِيفاً، وَلَمْ تَجْمَعْ عَلَيْهِ ذَهَابَ مَالِهِ وَسُوءَ مُعَامَلَتِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ لُؤْمٌ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٣٦ـ وَأَمَّا حَقُّ الْخَلِيطِ فَأَنْ لَا تَغُرَّهُ، وَلَا تَغُشَّهُ، وَلَا تُكَذِّبَهُ وَلَا تُغْفِلَهُ، وَلَا تَخْدَعَهُ، وَلَا تَعْمَلَ فِي انْتِقَاضِهِ عَمَلَ الْعَدُوِّ الَّذِي لَا يُبْقِي عَلَى صَاحِبِهِ، وَإِنِ اطْمَأَنَّ إِلَيْكَ اسْتَقْصَيْتَ لَهُ عَلَى نَفْسِكَ، وَعَلِمْتَ أَنَّ غَبْنَ الْمُسْتَرْسِلِ رِبًا. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٣٧ـ وَأَمَّا حَقُّ الْخَصْمِ الْمُدَّعِي عَلَيْكَ فَإِنْ كَانَ مَا يَدَّعِي عَلَيْكَ حَقّاً لَمْ تَنْفَسِخْ فِي حُجَّتِهِ وَلَمْ تَعْمَلْ فِي إِبْطَالِ دَعْوَتِهِ وَكُنْتَ خَصْمَ نَفْسِكَ لَهُ وَالْحَاكِمَ عَلَيْهَا وَالشَّاهِدَ لَهُ بِحَقِّهِ دُونَ شَهَادَةِ الشُّهُودِ، فَإِنَّ ذَلِكَ حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكَ وَإِنْ كَانَ مَا يَدَّعِيهِ بَاطِلًا رَفَقْتَ بِهِ، وَرَدَعْتَهُ، وَنَاشَدْتَهُ بِدِينِهِ، وَكَسَرْتَ حِدَّتَهُ عَنْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَأَلْقَيْتَ حَشْوَ الْكَلَامِ وَلَغْطَهُ الَّذِي لَا يَرُدُّ عَنْكَ عَادِيَةَ عَدُوِّكَ، بَلْ تَبُوءُ بِإِثْمِهِ، وَبِهِ يَشْحَذُ عَلَيْكَ سَيْفَ عَدَاوَتِهِ؛ لِأَنَّ لَفْظَةَ السُّوءِ تَبْعَثُ الشَّرَّ؛ وَالْخَيْرُ مَقْمَعَةٌ لِلشَّرِّ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٣٨ـ وَأَمَّا حَقُّ الْخَصْمِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ فَإِنْ كَانَ مَا تَدَّعِيهِ حَقّاً أَجْمَلْتَ فِي مُقَاوَلَتِهِ بِمَخْرَجِ الدَّعْوَى فَإِنَّ لِلدَّعْوَى غِلْظَةً فِي سَمْعِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، وَقَصَدْتَ قَصْدَ حُجَّتِكَ بِالرِّفْقِ، وَأَمْهَلَ الْمُهْلَةَ وَأَبْيَنِ الْبَيَانِ، وَأَلْطَفِ اللُّطْفِ، وَلَمْ تَتَشَاغَلْ عَنْ حُجَّتِكَ بِمُنَازَعَتِهِ بِالْقِيلِ وَالْقَالِ، فَتُذْهِبَ عَنْكَ حُجَّتَكَ، وَلَا يَكُونَ لَكَ فِي ذَلِكَ دَرَكٌ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٣٩ـ وَأَمَّا حَقُّ الْمُسْتَشِيرِ فَإِنْ حَضَرَكَ لَهُ وَجْهُ رَأْيٍ جَهَدْتَ لَهُ فِي النَّصِيحَةِ. وَأَشَرْتَ إِلَيْهِ بِمَا تَعْلَمُ أَنَّكَ لَوْ كُنْتَ مَكَانَهُ عَمِلْتَ بِهِ، وَذَلِكَ لِيَكُنْ مِنْكَ فِي رَحْمَةٍ وَلِينٍ، فَإِنَّ اللَّيِّنَ يُؤْنِسُ الْوَحْشَةَ، وَإِنَّ الْغِلَظَ يُوحِشُ مَوْضِعَ الْأُنْسِ، وَإِنْ لَمْ يَحْضُرْكَ لَهُ رَأْيٌ وَعَرَفْتَ لَهُ مَنْ تَثِقُ بِرَأْيِهِ وَتَرْضَى بِهِ لِنَفْسِكَ دَلَلْتَهُ عَلَيْهِ، وَأَرْشَدْتَهُ إِلَيْهِ فَكُنْتَ لَمْ تَأْلُهُ خَيْراً، وَلَمْ تَدَّخِرْهُ نُصْحاً. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٤٠ـ وَأَمَّا حَقُّ الْمُشِيرِ إِلَيْكَ فَلَا تَتَّهِمْهُ بِمَا يُوقِفُكَ عَلَيْهِ مِنْ رَأْيِهِ إِذَا أَشَارَ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّمَا هِيَ الْآرَاءُ وَتَصَرُّفُ النَّاسِ فِيهَا وَاخْتِلَافُهُمْ فَكُنْ عَلَيْهِ فِي رَأْيِهِ بِالْخِيَارِ إِذَا اتَّهَمْتَ رَأْيَهُ، فَأَمَّا تُهَمَتُهُ فَلَا تَجُوزُ لَكَ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْمُشَاوَرَةَ، وَلَا تَدَعْ شُكْرَهُ عَلَى مَا بَدَا لَكَ مِنْ إِشْخَاصِ رَأْيِهِ وَحُسْنِ مَشُورَتِهِ؛ فَإِذَا وَافَقَكَ حَمِدْتَ اللَّهَ وَقَبِلْتَ ذَلِكَ مِنْ أَخِيكَ بِالشُّكْرِ وَالْإِرْصَادِ بِالْمُكَافَأَةِ فِي مِثْلِهَا إِنْ فَزَعَ إِلَيْكَ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٤١ـ وَأَمَّا حَقُّ الْمُسْتَنْصِحِ فَإِنَّ حَقَّهُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَيْهِ النَّصِيحَةَ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي تَرَى لَهُ أَنَّهُ

يَحْمِلُ، وَيَخْرُجُ الْمَخْرَجَ الَّذِي يَلِينُ عَلَى مَسَامِعِهِ وَتُكَلِّمَهُ مِنَ الْكَلَامِ بِمَا يُطِيقُهُ عَقْلُهُ، فَإِنَّ لِكُلِّ عَقْلٍ طَبَقَةً مِنَ الْكَلَامِ يَعْرِفُهُ وَيَجْتَنِبُهُ، وَلْيَكُنْ مَذْهَبُكَ الرَّحْمَةَ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٤٢- وَأَمَّا حَقُّ النَّاصِحِ فَأَنْ تُلِينَ لَهُ جَنَاحَكَ، ثُمَّ تَشْرَئِبَّ لَهُ قَلْبَكَ، وَتَفْتَحَ لَهُ سَمْعَكَ حَتَّى تَفْهَمَ عَنْهُ نَصِيحَتَهُ، ثُمَّ تَنْظُرَ فِيهَا فَإِنْ كَانَ وُفِّقَ فِيهَا لِلصَّوَابِ حَمِدَ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَقَبِلْتَ مِنْهُ وَعَرَفْتَ لَهُ نَصِيحَتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وُفِّقَ لَهَا فِيهَا رَحِمْتَهُ وَلَمْ تَتَّهِمْهُ وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَمْ يَأْلُكَ نُصْحاً إِلَّا أَنَّهُ أَخْطَأَ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ مُسْتَحِقّاً لِلتُّهَمَةِ، فَلاَ تَعْبَأْ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٤٣- وَأَمَّا حَقُّ الْكَبِيرِ فَإِنَّ حَقَّهُ تَوْقِيرُ سِنِّهِ وَإِجْلَالُ إِسْلَامِهِ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ فِي الْإِسْلَامِ بِتَقْدِيمِهِ فِيهِ، وَتَرْكُ مُقَابَلَتِهِ عِنْدَ الْخِصَامِ، وَلَا تَسْبِقُهُ إِلَى طَرِيقٍ، وَلَا تَؤُمَّهُ فِي طَرِيقٍ وَلَا تَسْتَجْهِلْهُ؛ وَإِنْ جَهِلَ عَلَيْكَ تَحَمَّلْتَ وَأَكْرَمْتَهُ بِحَقِّ إِسْلَامِهِ مَعَ سِنِّهِ، فَإِنَّمَا حَقُّ السِّنِّ بِقَدْرِ الْإِسْلَامِ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٤٤- وَأَمَّا حَقُّ الصَّغِيرِ فَرَحْمَتُهُ، وَتَثْقِيفُهُ، وَتَعْلِيمُهُ، وَالْعَفْوُ عَنْهُ وَالسَّتْرُ عَلَيْهِ وَالرِّفْقُ بِهِ وَالْمَعُونَةُ لَهُ، وَالسَّتْرُ عَلَى جَرَائِرِ حَدَاثَتِهِ فَإِنَّهُ سَبَبٌ لِلتَّوْبَةِ، وَالْمُدَارَاةُ لَهُ، وَتَرْكُ مُمَاحَكَتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى لِرُشْدِهِ.

٤٥- وَأَمَّا حَقُّ السَّائِلِ فَإِعْطَاؤُهُ إِذَا تَهَيَّأَتْ صَدَقَةٌ وَقَدَرْتَ عَلَى سَدِّ حَاجَتِهِ، وَالدُّعَاءُ لَهُ فِيمَا نَزَلَ بِهِ، وَالْمُعَاوَنَةُ عَلَى طَلِبَتِهِ. وَإِنْ شَكَكْتَ فِي صِدْقِهِ وَسَبَقَتْ إِلَيْهِ التُّهَمَةُ لَهُ، وَلَمْ تَعْزِمْ عَلَى ذَلِكَ وَلَمْ تَأْمَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ أَرَادَ أَنْ يَصُدَّكَ عَنْ حَظِّكَ وَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّقَرُّبِ إِلَى رَبِّكَ، تَرَكْتَهُ بِسَتْرِهِ وَرَدَدْتَهُ رَدّاً جَمِيلاً وَإِنْ غَلَبَتْ نَفْسَكَ فِي أَمْرِهِ وَأَعْطَيْتَهُ عَلَى مَا عَرَضَ فِي نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ.

٤٦- وَأَمَّا حَقُّ المسؤول فَحَقُّهُ إِنْ أَعْطَى قُبِلَ مِنْهُ مَا أَعْطَى بِالشُّكْرِ لَهُ وَالْمَعْرِفَةِ لِفَضْلِهِ وَطَلَبِ وَجْهِ الْعُذْرِ فِي مَنْعِهِ، وَأَحْسِنْ بِهِ الظَّنَّ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ إِنْ مَنَعَ مَالَهُ مَنَعَ، وَأَنْ لَيْسَ التَّثْرِيبُ فِي مَالِهِ، وَإِنْ كَانَ ظَالِماً فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ.

٤٧- وَأَمَّا حَقُّ مَنْ سَرَّكَ اللَّهُ بِهِ وَعَلَى يَدَيْهِ فَإِنْ كَانَ تَعَمَّدَهَا لَكَ حَمِدْتَ اللَّهَ أَوَّلًا ثُمَّ شَكَرْتَهُ عَلَى ذَلِكَ بِقَدْرِهِ فِي مَوْضِعِ الجَزَاءِ، وَكَافَأْتَهُ عَلَى فَضْلِ الابْتِدَاءِ، وَأَرْصَدْتَ لَهُ الْمُكَافَأَةَ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَعَمَّدَهَا حَمِدْتَ اللَّهَ وَشَكَرْتَهُ وَعَلِمْتَ أَنَّهُ مِنْهُ تَوَحَّدَكَ بِهَا، وَأَحْبَبْتَ هَذَا إِذَا كَانَ سَبَباً مِنْ أَسْبَابِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ، وَتَرْجُو لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْراً فَإِنَّ أَسْبَابَ النِّعَمِ بَرَكَةٌ حَيْثُ مَا كَانَتْ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَعْمِدْ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٤٨ـ أَمَّا حَقُّ مَنْ سَاءَ لَكَ الْقَضَاءَ عَلَى يَدَيْهِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، فَإِنْ كَانَ تَعَمَّدَهَا كَانَ الْعَفْوُ أَوْلَى بِكَ لِمَا فِيهِ لَهُ مِنَ الْقَمْعِ وَحُسْنِ الأَدَبِ مَعَ كَثِيرٍ أَمْثَالِهِ مِنَ الْخُلُقِ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَمَنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ هَذَا فِي الْعَمْدِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَمْداً لَمْ تَظْلِمْهُ بِتَعَمُّدِ الانْتِصَارِ مِنْهُ، فَتَكُونَ قَدْ كَافَأْتَهُ فِي تَعَمُّدٍ عَلَى خَطَأٍ؛ وَرَفَقْتَ بِهِ وَرَدَدْتَهُ بِأَلْطَفِ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ. وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

٤٩ـ وَأَمَّا حَقُّ مِلَّتِكَ عَامَّةً فَإِضْمَارُ السَّلَامَةِ وَنَشْرُ جَنَاحِ الرَّحْمَةِ وَالرِّفْقُ بِمُسِيئِهِمْ وَتَأَلُّفُهُمْ وَاسْتِصْلَاحُهُمْ وَشُكْرُ مُحْسِنِهِمْ إِلَى نَفْسِهِ وَإِلَيْكَ، فَإِنَّ إِحْسَانَهُ إِلَى نَفْسِهِ إِحْسَانُهُ إِلَيْكَ إِذَا كَفَّ مِنْكَ أَذَاهُ، وَكَفَاكَ مؤونته، وَحَبَسَ عَنْكَ نَفْسَهُ فَعُمَّهُمْ جَمِيعاً بِدَعْوَتِكَ، وَانْصُرْهُمْ جَمِيعاً بِنُصْرَتِكَ، وَأَنْزِلْهُمْ جَمِيعاً مِنْكَ مَنَازِلَهُمْ كَبِيرَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ، وَصَغِيرَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَلَدِ، وَأَوْسَطَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْأَخِ، فَمَنْ أَتَاكَ تَعَاهَدْهُ بِلُطْفٍ وَرَحْمَةٍ وَصِلْ أَخَاكَ بِمَا يَجِبُ لِلْأَخِ عَلَى أَخِيهِ.

٥٠ـ وَأَمَّا حَقُّ أَهْلِ الذِّمَّةِ فَالحُكْمُ فِيهِمْ أَنْ تَقْبَلَ فِيهِمْ مَا قَبِلَ اللَّهُ، وَتَفِيَ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ ذِمَّتِهِ وَعَهْدِهِ، وَتَكِلَهُمْ إِلَيْهِ فِيمَا طُلِبُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأُجْبِرُوا عَلَيْهِ وَتَحْكُمَ فِيهِمْ بِمَا حَكَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ، فِيمَا جَرَى بَيْنَكَ وَبَينهم مِنْ مُعَامَلَةٍ، وَلْيَكُنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ظُلْمِهِمْ مِنْ رِعَايَةِ ذِمَّةِ اللَّهِ وَالْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ وَعَهْدِ رَسُولِهِ (ص) حَائِلٌ فَإِنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَداً كُنْتُ خَصْمَهُ» فَاتَّقِ اللَّهَ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

فهذه خَمْسُونَ حَقّاً مُحِيطاً بِكَ لَا تَخْرُجُ مِنْهَا فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ يَجِبُ عَلَيْكَ رِعَايَتُهَا وَالْعَمَلُ فِي تَأْدِيَتِهَا وَالِاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

بعض الضوء

مَن يطالع هذه اللوائح الحقوقية بإمعان وشمولية، وأعني بالشمولية الإصغاء القلبي والعقلي والروحي، لابدَّ وأن يخرج بانطباع حول صياغة هذه الرسالة، في هذا الاندماج المثير بين إيقاعها الأخلاقي وقالبها القانوني، وهو اندماج يؤكّد وحدة النبع والمصدر، اندماج يحكي اندماج الهواء بالهواء، والشعاع والضياء والروح الإنسانية بأنفاس الحياة المفعمة بالأمل والحريّة.

إضافة إلى أن المرء لا يغفل عن تلك المعادلة الرائعة في بيان فلسفة الحقوق والواجبات،

فيشعر من يصغي إلى بنودها إلى أنَّ العالَم بأسره إنما ينهض على موازنة يعبّر عنها القرآن ببلاغة فريدة: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ وتلك الدعوة السماوية لسكان الأرض: ﴿أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾.

حتى في مسار الرسالة الحقوقية نشهد خطاباً منطقياً، يبدأ مع تثبيت قاعدة كبرى في الحقوق الإلهية، التي هي المصدر القانوني الوحيد لحقوق الإنسان، والتفصيل في الحقوق الإنسانية هو الآخر، يتحرّك بجاذبية؛ لأنّه يشرح فيها الحقوق الذاتية التي تشمل الناس جميعاً حاكمين ومحكومين؛ مع افتراض بديهي جدّاً هو أنَّ أفراد المجتمع الإنساني يتلقّون المفاهيم الحقوقية في الأسرة والمدرسة، قبل تصنيفهم فيما بعد، بحسب المواقع التي سوف يشغلونها وطبيعة الوظائف التي سيؤدّونها.

إنّك لتجد تفصيلات الحقوق الذاتية، تتناول مفردات تدخل في صياغة وتبلور الشخصية الإنسانية، قبل أن تنتقل إلى مجمل النشاط الديني الذي يفترض تأديته من قبل الفرد، بوصفه جزءاً من البناء الاجتماعي.

ثمَّ يحدث انتقال نوعي في طبيعة التعامل مع النظام الإداري مرؤوساً أو رئيساً؛ وإلى جانب هذا تجد أن البنود التي تتعلّق بالعلاقات الأسرية وما هو أشمل من ذلك؛ أي التفصيل في حقوق الأمومة، والأبوة، والطفولة، والأخوة، ما يؤسّس لضمانات إنسانية ذاتية تجعل من المرء مسؤولاً أمام أمّته؛ حيث الأسرة وحدة صغيرة ومحك حقيقي يكشف عن حقيقة التعامل الإداري ومقياس التسامي والهبوط.

فالمرء ـ وعلى سبيل المثال ـ الذي يسحق حقوق الأمومة والأبوّة والذي لا يعرف معنى القداسة للطفولة والأخوّة أجدر بالناس أن يكونوا على حذر في تسنّمه مواقع إدارية حسّاسة، والذي يضطهد زوجته وشريكة حياته ورفيقة دربه مرشح، لأن يضطهد شعباً بأسره؛ مهما اختفى وراء ستائر من البريق الكاذب والدعاية الخادعة.

وفي كلّ هذا التفصيل الرائع للحقوق يشعر المرء أنّه في رحاب الله وفي حضرته، حيث الضمير الإنساني ذلك الضوء المنبعث في أعمق أعماق البشر، هو الممثل القانوني لله تبارك وتعالى. ولعل المادّة المتعلقة بحقوق الخصم تكشف بوضوح عن هذا الحضور الإلهي: «وَأَمَّا حَقُّ الْخَصْمِ الْمُدَّعِي عَلَيْكَ فَإِنْ كَانَ مَا يَدَّعِي عَلَيْكَ حَقّاً لَمْ تَنْفَسِخْ فِي حُجَّتِهِ وَلَمْ تَعْمَلْ فِي إِبْطَالِ دَعْوَتِهِ وَكُنْتَ خَصْمَ نَفْسِكَ لَهُ وَالْحَاكِمَ عَلَيْهَا وَالشَّاهِدَ لَهُ بِحَقِّهِ دُونَ شَهَادَةِ الشُّهُودِ فَإِنَّ ذَلِكَ حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكَ...».

ولك أن تتأمّل كيف ترتبط حقوق الخصم بحقّ الله، والشواهد عديدة جداً في هذه الرسالة الحقوقية الهامّة.

وهذه الشمولية الرائعة في الطرح تدفع المواطن العربي إلى إشكالية الواقع والمثال، بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون؛ لأنَّ الدولة التي يقرّها الإسلام نظرياً، تختلف عن الدولة التي ظهرت طوال التاريخ العربي الإسلامي؛ ولولا الوهج الأخلاقي في عهد النبي (صلى الله عليه وآله) وعلى عهد الخلفاء الراشدين[١٥]، لأصبح الحديث عن الدولة الإسلامية حديثاً مثالياً مغرقاً في الخيال.

وكان للتجربة الأموية والعباسية الطويلة من القوّة والرسوخ، أن نفذت إلى خلايا التفكير وأسهمت في بناء الذهنية العربية، بحيث غطّت تماماً على تجربة صدر الإسلام.

وما حدَثَ في تاريخ الدولة العربية هو الذي أثّر في المجتمعات العربية ولا يزال، بل ترسّب في أعماق المواطن العربي؛ حتى أصبح من المدهش أن يقال: إن هناك ألواناً أخرى من الحكم!

وهذه التجربة المريرة والطويلة مع الأنظمة عبر التاريخ العربي؛ وما تنطوي عليه من جذور ضاربة في عمق التاريخ، حتى قبل ظهور الإسلام، كوّنت طبيعة خاصّة للمواطن العربي، جعلته متطبّعاً مع النظام العربي في العصر الحاضر. فالنظم السائدة في الوطن العربي اليوم، امتداد للأنظمة الأموية وما سنّه العباسيّون ومارسوه. فلا تجد فاصلة واضحة بين رؤية المنصور مؤسّس الدولة العباسية في بغداد، فهو أمير المؤمنين أعرف بما يصنع ولا يُسأل عمّا يفعل، وبين حاكم بغداد في القرن الحادي والعشرين فهو «الزعيم الأوحد والقائد الملهم والضرورة»[١٦].

وطُولُ فترة الحكم الدكتاتوري أفرز حالة عبّر عنها المفكّر الجزائري مالك بن نبي بـ «القابلية» وهي في كلّ الأحوال استعداد مكتَسَبٌ وليس متأصّلاً؛ بالرغم من قدرته على إقناع المواطن العربي، في قبول نظم الحكم الاستبدادية على أنها نظام حكم طبيعي!

وبالرغم من أنَّ الإنسان العربي فيما مضى لم يكن يتفهّم أن يظل الخليفة حاكماً مدى الحياة، ولكن سياسة الخلفاء والملوك وشعارهم الدائم في البقاء[١٧] جعل المجتمعات العربية في فترة تالية، وخاصة في العصر العباسي تتطبّع على الحكم مدى العمر، وكانت تنظر إلى الحاكم كقدر من الأقدار أو ظاهرة كارثية كالزلازل والطاعون التي هي في تصوّرهم عقاب للبشر على انحرافهم[١٨].

وتحوّل مفهوم البيعة إلى توقيع شعبي وجماهيري على صكّ العبودية للحاكم، وليس عقداً اجتماعياً يتضمّن حقوقاً وواجبات متبادلة.

وأصبح النظام في التجربة العباسية تفويضاً إلهياً وأنَّ الخليفة ظلّ الله في الأرض، وأصبح اللقب الملتصق بالله من أساسيات الحكم وأكثرها مدعاة للألم. فطاغية دكتاتور مثل جعفر بن الواثق كان لقبه الرسمي المتوكّل على الله!

وليس من حاجة إلى نقد الواقع العربي اليوم وأي كلام في هذا المضمار سيظلّ باهتاً ومدعاة للبكاء وربما الضحك؛ لأنه من شرّ البليّة.

والمطلوب من العالَم العربي اليوم أن يعي جيداً درس الاتحاد السوفيتي، لقد ذهبت أدراج الرياح حكومة الفرد المستبد وعاد حكم الأمّة.

ومن الطبيعي أن الطريق إلى تحقيق هذه الغاية التي يحلم بها المواطن العربي اليوم، سيكون طويلاً من خلال تجربة ثقافية تربوية، يتجسّد فيها العمل كثيراً ويقل فيها الكلام وتنحسر فيها الشعارات الفارغة؛ سيكون هناك دور للأسرة والمدرسة في ترسيخ مفاهيم حيوية حول الإيمان بالله وكرامة الإنسان، واحترام الرأي، وقبول رأي الأغلبية.

كما يتوجّب أن يكون القانون فوق الجميع؛ لأنَّ القانون الذي يتكفّل صياغة النظام الحقوقي هو الذي يحفظ حالة التوازن الاجتماعي، وينبغي أن تكون الصحافة ووسائل الإعلام في مستوى الأداء الجادّ. والعمل على ترسيخ هذه المفاهيم في صياغة نظام نابع من الإرث الحضاري لما أبدعه الأقدمون بعد تنقيته من شوائب التجارب السيّئة.

إن تحوّل مفاهيم من قبيل الحرّية إلى ممارسة في التفكير والتعبير والقول والعمل معترف بها من الجميع كواقع ثقافي وإنساني، هو الذي سيعيد حالة التوازن المفقود.

وفي رأيي ستبقى كلّ هذه المفاهيم في مستوى الشعارات أو النصوص المكتوبة في الدساتير، ما لم تحدث خطوة جادّة في الإيمان بالله الذي كرَّم بني آدم من دون السماح لأحد أن يتحدّث باسمه أو يحكم من خلاله.

الهوامش

(١) الصحيفة السجّادية، رواية الزهري عن سعيد بن المسيّب.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٠١.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٢٨.

(٥) سورة الأعراف: الآية ٥٦.

(٦) سورة الفجر: الآية ٢٨.

(٧) سورة الصف: الآيات ٢ ـ ٣.

(٨) سورة الإسراء: الآية ٩٥.

(٩) الشيخ الصدوق، الخصال، أبواب الستة.

(١٠) جورج جرداق، روائع نهج البلاغة، ص٢٢٤.

(١١) المصدر السابق، ص٢٢٤ ـ ٢٢٨.

(١٢) في المؤتمر الإسلامي الذي انعقد بطهران كانت عدسة المصور تتصفح وجوه الرؤساء العرب؛ فيما كانت تلاوة معطرة رائعة يصدح بها القارئ «منصوري» الذي أبدع في قراءة سورة الشمس. التي ذكرت مصرع الناقة.. ناقة الله وقد انبجست دموع الكثيرين في مشهد لا ينسى.

(١٣) نهج البلاغة.

(١٤) الرحمن: ٧.

(١٥) مع التحفظ طبعاً على تجربة الخلافة الثالثة.

(١٦) قال الكاتب العراقي عبد الرزّاق عبد الواحد في حديث تلفزيوني مؤخّراً: أنّه لا يعرف رجلاً أفصح من المتنبي وصدام حسين!

(١٧) من شعارات النظام العراقي في سنة ١٩٦٨م (سنة الانقلاب العسكري): «جئنا لنبقى»، وهو نفسه الذي رفعه في مدينة خرمشهر بعد احتلالها!

(١٨) امتنَّ المنصور على الناس بأنَّ الله رفع عنهم الطاعون في فترة حكمه، فردّ أحدهم قائلاً: إن الله لا يجمع علينا حشفاً وسوء كيل: ولايتك والطاعون!